

إمامٌ عادل

دليلك لتكون حاكمًا صالحًا

محمد محمود

رقم الإيداع	2019/19534
I.S.B.N	978 -977 -676 -800 - 0

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته، حمدًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ورفيع ذاته، حمدًا يكافئ وفير نعمه وتمام فضله وكمال صفاته، والصلاة والسلام على محمدٍ نبيه المصطفى لآخر رسالاته، صلى الله عليه وملائكته في كريم قرآنه ومحكم آياته، وعلى آله وأصحابه وذريته وزوجاته، ومن تابعهم بإحسانٍ ابتغاء رضوان الله ورحماته، رزقنا الله وإياهم دون حسابٍ ولا سابقة عذابٍ أعلى جناته..

ثم أمَّا بعد،

كنت قد طالعت من زمنٍ بعض سطورٍ من كتاب الأمير لميكافيللي، وهو كتابٌ شهيرٌ في بابه، دنيءٌ في غرضه، وهو – لمن لا يعرف– كتابٌ ألّفه نيقولا ميكافيللي، وأهداه للأمير

لـورنزو أحـد أفـراد الأسـرة الحاكمـة في إيطاليـا أواخـر القـرن الخـامس عشـر، وقـد تنـاول فيـه أخلاقيـات السياسـة بمـا لا يتناسب إلا والطغاة الأشرار من الحكام؛ فهو يزخر بكل معاني الخسة والانتهازية، ويرمي إلى أن يظهر الحاكم في أفضل صورة أمام شعبه، وإن سلك في سبيل ذلك كل مسلكٍ، غير مبالٍ بمشـروعية هـذا المسـلك مـن عـدمها، محققًّـا بـذلك عبارتـه الشهيرة: (الغاية تبرر الوسيلة)، وقد أفاد من هذا الكتاب كثيرٌ من طغاة العالم وطواغيته، حتى إنه أصبح رمزًا لخسة الحكام وطغيانهم..

لكنني لما لم أجد فيه ثمة ما يدفعني لاستكماله عزفت عن قراءته، خاصةً وهو يحمل من معاني الشر الكثير، ومن صور الأنانية الوفير، لكن ثمة سؤالٌ مُلِحٌّ ظلَّ يراودني، فإذا كان هذا الكتاب يحمل تلك الصورة السلبية للحاكم، بل ويحض عليها، فلماذا نقتصر على التحذير منه وانتقاد ما جاء فيه، ولماذا لا نضع كتابًا يبصِّر الحاكم بما عليه وفق نماذج صالحة

لإمامٍ عادلٍ يُقتدى به، لماذا يُترك الحاكم لميكافيللي يبث فيه سموم الرذائل، دون أن نصنع له مصلًا من الفضائل؛ لذلك فقد شرعتُ في وضع هذا الكتاب جامعًا فيه ما رأيتُ من كريم الخصال، ورفيع الخلال، التي ينبغي أن تجتمع في كل من وَلِيَ أمرًا، ولم أعتنِ بترتيبٍ معين عند عرض هذه الخلال وتلك الخصال، تنبيهًا على أهمية اجتماعها دون أفضلية لتقدمة إحداها على الأخرى، كما حرصت على سوق بعض القصص التي تتبدى فيها تلك الأخلاق والشمائل جليةً من سيرة النبي الكريم ﷺ، وسابقيه من الأنبياء، ولاحقيه من الخلفاء؛ لتكون خير معين على اقتفاء أثر الأنبياء والصالحين.

واعلم –حفظك الله– أن هذا الكتاب لم يوضع للحاكم وحده، وإنما وضع لكل راعٍ مسئولٍ عن رعيةٍ؛ فهو للرئيس والوزير والمحافظ والقاضي والضابط والمدير والمعلم والأب، وكل راعٍ له رعية يرعاها ويُسأل عنها..

سائلين الله أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يرشدنا إلى ما فيه رضاه، وأن يتقبله منا بالقبول الذي نرضاه، والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير،

المؤلف.

العدل

بداهةً، فإنَّ أهمَّ ما يُشترط في الحاكم أن يكون عادلًا، مع جميع مَن هُم دونه، مساويًا بينهم في الحقوق والواجبات، لا يميل لأحدٍ ولا يحيفُ على أحد، يضع الجميع على مسافةٍ واحدةٍ منه، بل إنه يبادر بتطبيق القانون على نفسه وأوليائه ومناصريه قبل سواهم، بل ويبدأ بنفسه وبأبنائه، يقول رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[1].

والحاكم العادل لا يستقوي على الضعفاء ويغض الطرف عن الأقوياء أصحاب النفوذ، بل إنَّه يقوي الضعيف بقوة العدالة، ويُخضع القوي للقوة ذاتها، وقد جاء في خطبة أبي

[1] - رواه الشيخان.

بكرٍ الصديق يوم السقيفة: «.. والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه[1] إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله..»[2]، فجعل ﵁ القوةَ في الحقِّ وحده، يمتلكها صاحب الحقِّ حتى يسترد حقه، فإن استرده عاد الجميع سواسيةً كأسنان المشط.

والإمام العادل ينتصف حتى من أبنائه لأبناء شعبه، ويتحرى العدالة في أقل الأمور وأهونها، حتى ولو لم يشكُ أحدٌ، «قال عبد الله بن عمر: اشتريت إبلًا وارتجعتها إلى الحِمى[3]، فلمَّا سمنت قدمت بها، قال: فدخل عمر ابن الخطاب ﵁ السوق، فرأى إبلًا سمانًا، فقال: لمن هذه الإبل؟ قيل: لعبد الله بن عمر، قال: فجعل يقول: يا عبد الله ابن عمر، بَخٍ بَخٍ[4] ابن أمير المؤمنين، قال: فجئته أسعى فقلت: ما لك يا أمير المؤمنين؟ قال: ما هذه الإبل؟ قال: قلت: إبل

---

[1] - أعيد له حقَّه.
[2] - البداية والنهاية، ابن كثير.
[3] - أي أعدتها إلى المراعي.
[4] - كلمة تقال عند الرضا والإعجاب، لكنه كان يقولها ساخرًا.

أنضاء[1] اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى، أبتغي ما يبتغي المسلمون، قال: فقال: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين، يا عبد الله بن عمر، اغدُ على رأس مالك، واجعل باقيه في بيت مال المسلمين»[2]، لم يخطئ ابنه، ولم يأخذ حقَّ أحدٍ، ولم يشكُه أحدٌ، لكنه خشي أن يكون الناس قد قدَّموا إبله على إبل غيره مجاملةً لأبيه! فلله دَرُّكَ يا عمر!

وعدالة الإمام لا تكون مع فئةٍ دون فئة، ولا ينالها الأغلبية وتُحرمُها الأقلية، وإنما العدالة تقتضي أن تكون الحقوق للجميع والواجبات على الجميع، لا فرق في ذلك بين أحدٍ، لا على أساس جنس ولا عرق ولا دين، «مر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه بباب قومٍ وعليه سائلٌ يسأل: شيخٌ كبيرٌ ضريرُ البصر، فضرب عضده من خلفه، وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل

---

[1] - هزيلة، يقصد حال اشتراها.
[2] - سنن البيهقي الكبرى.

الجزية والحاجة والسن. قال: فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله فرضخ[1] له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه[2]؛ فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهَرَم[3]، ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾[4]، والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه».[5]

فالعدالة مظلة تشمل كل من تحتها، بلا تفرقة ولا تمييز، الكل سواء أمام القانون، لأن به تقوم الدول، وعليه يطول عمر الحضارات، قال ابن تيمية: «الجزاء في الدنيا متفِقٌ عليه أهلُ الأرض، فإنَّ الناس لم يتنازعوا في أنَّ عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يُروى: الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة»[6].

---

[1] - أعطاه شيئًا ليس بالكثير.
[2] - أمثاله.
[3] - كبر السن.
[4] - التوبة 60.
[5] - الخراج، أبو يوسف الأنصاري.
[6] - رسالة الحسبة، ابن الجوزي.

ومن أهمِّ مظاهر العدالة على الإطلاق ألَّا يؤاخذ أحدٌ بذنب أحدٍ، فإذا أذنب شخصٌ تعيَّن على الإمام العادل أن يقتصَّ منه وحده، ولا يتعدَّى ذلك لأبيه وأمه وإخوته وأصحابه، يقول تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩ ﴾[1]، فالعدالة تقتضي ألا يسرف الحاكم في العقاب فينال من أحدٍ غير المذنب، أو ينتقص من حقوق ذوي المجرم عقابًا لهم على ذنبٍ لم يرتكبوه.

ولأن الشيء بالشيء يُذكر فإن من أهم معايير العدالة احترام آدمية المذنب، فهو إنسانٌ وإن كان مذنبًا، وكذلك احترام الحرمات، فلا تُقتحم البيوت على أهلها دون إنذارٍ لملاحقة مجرم، فحتى كفار قريش منعتهم مروءتهم من اقتحام بيت رسول الله ﷺ وهم عازمون على قتله!

---

[1] - يوسف: 78-79.

وكذلك لا دخلَ للحب والبغض في العدالة، فالحاكم العادل ينحِّي مشاعره الشخصية عن كفتي ميزان العدالة، فلا يدفعه حبُّه لأحدٍ ألَّا يقضي عليه إن أخطأ، وعلى هذا كان رسول الله ﷺ: «وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[1]، ولا تدفعه كراهيته لأحدٍ ألَّا يقضي له إن كان صاحب حقٍّ، يقول تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2]، فالعدالة في القضاء، والإنصاف في الحكم لا دخل فيهما للحب والكراهية، وعلى الحاكم والمحكومين أن يعوا ذلك كما وعاه السلف الصالح؛ «قال عمر بن الخطاب لرجل –وهو أبو مريم السَّلوليُّ–: والله لا أحبُّك حتى تحبَّ الأرضُ الدَّمَ. قال: أفتمنعني حقًّا؟ قال: لا. قال: فلا بأس، إنّما يأسف على الحبِّ النساء»[3].

---

[1] - رواه الشيخان.
[2] - المائدة 8.
[3] - الكامل، المبرد.

ومن مظاهر العدالة أيضًا أن يلتمس الإمام العادل للناس الأعذار، وألَّا يبادر إلى إيقاع العقاب وإعمال السوط قبل التحقُّق والتأكُّد والتمحيص والتدقيق، ولابد من محاكمة نزيهة يحصل فيها المتهم على حقِّه كاملًا من الدفاع عن نفسه، ويقضي فيها الإمام العادل قضاءً موضوعيًّا لا يخضع لأهواءٍ ولا مصالح، إنَّما يضع نصب عينيه العدالة وحدها ولا شيء غيرها، الأمر الذي أجراه سيدنا سليمان مع الهدهد إذ تأخَّر دون عذرٍ معلوم: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]، لم يُنفِذ فيه سيدنا سليمان العقاب حتى يسمعه، فلمَّا سمع ما عنده قرَّر أن يتحرى صدقه من كذبه، وبناءً عليه يتحدد حكمه من العفو عنه أو معاقبته.

وعلى الإمام أن يعي أنَّ العدل وحده ولا شيء سواه يقيم له حكمه، «كتب الجرَّاح بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز: إن أهل خراسان قومٌ ساءت رعيتهم، وإنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ذلك. فكتب إليه عمر: أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر أن أهل خراسان قد ساءت رعيتهم، وأنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط، فقد كذبت، بل يصلحهم العدل والحق، فابسط ذلك فيهم، والسلام»[2].

---

[1] - النمل 27:20.
[2] - تاريخ الخلفاء، السيوطي.

الرحمة فوق العدل

وإن كانت العدالة هي الركن الركين في بناء الدول، والضامن الوحيد لبقائها واستمرارها، فإنَّ تلك العدالة تحتاج قلبًا ترحم به، وعينين تبصران بهما، فالعدالة ليست عمياء كما يُشاع، والقوانين ليست نصوصًا مجرَّدةً من الرفق والرحمة والعطف، وأهم من القانون روح القانون، فالقانون في ذاته ليس غايةً تُراد، وإنما هو وسيلة لإقرار مبادئ الحياة الكريمة؛ لذلك لابد من مراعاة المصلحة قبل تنفيذ القانون، «حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ امْرَأَةً - يَعْنِي - مِنْ غَامِدٍ، أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ فَجَرْتُ، فَقَالَ: «ارْجِعِي»، فَرَجَعَتْ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ الْغَدُ أَتَتْهُ، فَقَالَتْ: لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ، فَوَاللهِ إِنِّي لَحُبْلَى، فَقَالَ لَهَا: «ارْجِعِي»، فَرَجَعَتْ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ أَتَتْهُ، فَقَالَ لَهَا: «ارْجِعِي حَتَّى تَلِدِي»، فَرَجَعَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ، فَقَالَتْ: هَذَا قَدْ

وَلَدْتُهُ، فَقَالَ لَهَا: «ارْجِعِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ» فَجَاءَتْ بِهِ وَقَدْ فَطَمَتْهُ، وَفِي يَدِهِ شَيْءٌ يَأْكُلُهُ، فَأَمَرَ بِالصَّبِيِّ فَدُفِعَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا، وَأَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، وَكَانَ خَالِدٌ فِيمَنْ يَرْجُمُهَا، فَرَجَمَهَا بِحَجَرٍ فَوَقَعَتْ قَطْرَةٌ مِنْ دَمِهَا عَلَى وَجْنَتِهِ، فَسَبَّهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَهْلًا يَا خَالِدُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ[1] لَغُفِرَ لَهُ»، وَأَمَرَ بِهَا فَصُلِّيَ عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ»[2].

فرسول الله كان بوسعه أن يقيم عليها الحد منذ جاءته، وهي معترفة، والاعتراف سيد الأدلة، لكنه ردَّها ثلاثًا، وليس في ذلك ثمة استهانة بحدود الله، وإنما هو تعظيم لغايات الله في حدوده، فحفظ النفس مقدَّمٌ على ما سواه، والنفس المقصودة هنا هي نفس الطفل الذي يتحرك في أحشائها، الطفل الذي لا يجوز أبدًا أن يؤخذ بذنب أمه، ولا يُعاقَب بما اقترفت، ولا

---

[1] - صاحب المكس هو الذي يأخذ الضرائب من الناس بغير وجه حق.
[2] - رواه أبو داود في سننه وصححه الألباني.

تهـدر حياتـه دون ذنـبٍ أو جريـرة، ثم إنَّ النـبي الـرحيم ﷺ لم يحبسها حتى تلد، ولم يلزم أحدًا بمراقبتها، ولم يرسل خلفها من يتعقبهـا، فلمَّـا وضـعت وعـادت راعـى النـبي الإنسـان حاجـة الطفـل لهـا، ولم يشـأ أن يحرمـه حقَّـه في الحضـانة والرضـاعة، فأمهلها حتى الفطام، وحتى حينما عاقبها لم يسمح لأحدٍ أن يسبَّها حتى ولو كان خالد بن الوليد، محقِّقًا بذلك أرقى صور احـترام حقـوق الإنسـان، إذ يُعاقَـب المجـرم علـى جريمتـه، لكنـه يُعاقب وحده، ولا تؤخذ بجريرته نفسٌ أخرى، ويعاقب دون أن يُعـاب أو يهـان أو يُسـاء إليه، فهـو في نهاية الأمر إنسانٌ، قد يصيب وقد يخطئ، قد يُحسن وقد يسيء، فإن أخطأ أو أساء نالـه مـن العقوبـة علـى قـدر خطئـه وإسـاءته، دون تجـاوزٍ أو مغالاة، ودون أن نجرده من آدميته وإنسانيته، ودون أن نتجرد نحن من رحمتنا وإشفاقنا.

«عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكْتُ، قَالَ: «مَا لَكَ؟»،

قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي[1] وَأَنَا صَائِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً[2] تُعْتِقُهَا؟»، قَالَ: لَا، قَالَ: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟»، قَالَ: لَا، فَقَالَ: «فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟»، قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ —وَالْعَرَقُ: الْمِكْتَلُ— قَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ؟»، فَقَالَ: أَنَا، قَالَ: «خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهِ»، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَوَاللهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا -يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ[3]- أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ ثُمَّ قَالَ: «أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ»[4].

هذا هو الإمام العادل، الإمام الذي غايته أن يحلَّ المشكلات لا أن يعقِّدَها، الرجل أخطأ واستحقَّ عقابًا، ولمَّا لم يقدر على العقاب، خففه عليه رسول الله، فلم يقدر فخفف، فلمَّا ضاقت بالرجل السبل أعانه بنفسه على ما

---

[1] - يريد: جامعتها.
[2] - عبدًا مملوكًا.
[3] - مثنى حرة وهي أرض ذات حجارة سوداء والمدينة بين حرتين.
[4] -متفقٌ عليه.

يصحح به خطأه، فأراد الرجل أن يأخذ تلك الصدقة لنفسه وعياله، فأجازه الرسول الإنسان ﷺ؛ لأنه أدرك أنه ليس سيَّافًا يطيِّر رأس من أذنب، ولا جلَّادًا يلهب ظهر من أساء، إنما هو الطبيب الذي يعالج قلب من أخطأ، والمعلم الذي يأخذ بيد من تعثَّر، مادامت العثرة تسمح بذلك، والخطأ يمكن تداركه، مقدِّمًا الرحمة على العدالة، ومعليًا شأن الشفقة والعطف والرفق.

الرفق

مخطئٌ من يظنُّ أن الحكم لن يستقيم لهُ إلا بالعنف والشدة والغلظة، فيستطيل على الناس ويقسو عليهم، ظانًّا أنَّ الشعوب لا تنقاد إلا بالسوط، ولا تعمل إلا بالحديد والنار، فيغضُّ الطرف عن الرفق واللين والإحسان الذي له فعلُ السحر في استعباد قلوب الناس، غيرَ مدركٍ أن التشديد على الناس لن يجلب له إلا المشقة، والرفق بهم يجلب عليه الخير

كله، «عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، فَذَكَرَ قِصَّةً، فَقَالَتْ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ، وَمَنْ شَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ»[1]، فالرفق يأتي بالرفق، والمشقةُ لن تجرَّ إلا المشقة، والإمام العادل هو من يأمر بالرفق ويحضُّ عليه ويحرص عليه مع من وليهم، «دخل عامل لعمر رضي الله عنه فوجده مستلقيًا وصبيانه يلعبون على بطنه، فأنكر ذلك. فقال: كيف أنت مع أهلك؟ قال: إذا دخلت سكت الناطق. قال: اعتزل، فإنك لا ترفق بأهلك وولدك، فكيف ترفق بأمة محمدﷺ»[2].

«كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة إلى الحسن بن أبي الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن رحمه الله: اعلم يا أمير المؤمنين، أنَّ

---

[1] - رواه أحمد في مسنده، ورواه مسلم بتمامه.
[2] - الأبرار، الزمخشري.

الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومَفْزَعَ كل ملهوف، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي[1]، ويذودها عن مراتع الهلكة[2]، ويحميها من السباع، ويكنُّها من أذى الحر والقر[3]، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغارًا، ويعلِّمهم كبارًا، يكتسب لهم في حياته، ويدَّخر لهم بعد مماته، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهًا، ووضعته كرهًا، وربته طفلًا تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويموِّن[4] كبيرهم، والإمام العدل يا أمير المؤمنين

---

[1] - يختار لها أفضل الأماكن لترعى فيها.

[2] - يمنعها من المراعي الضارة.

[3] - يحميها من الحر والبرد.

[4] - يحتمل مؤنته ويقوم بكفايته.

كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده[1] ».

أدرك الحسن البصري بفطنته أن الإمام العادل هو الرفيق بشعبه الشفيق بهم، كالراعي على إبله، يختار لهم الأفضل، ويحميهم من كلِّ شرٍّ وسوء؛ لأنهم -لو وعى- رأس ماله الحقيقي، بسواعدهم تنبني الأمم، وعلى أكتافهم تقوم الحضارات، فهو أحوج إليهم منهم إليه، وهو كالأب على أولاده، يسعى ليوفِّر لهم حياةً كريمة، ويجتهد ليترك لهم بعده ما يقيم حياتهم، وهو كالأم على أبنائها، تسهرُ في رعايتهم، وتتألم لألمهم، ولا تقرُّ عينها إلا براحتهم، ووفق هذه النصائح أصبح عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين؛ إذ كان في رحمته ورفقه وعدله وورعه يغرِّدُ خارج سرب الأمويين، ويداني الخلفاء الراشدين المهديين رغم أنَّ حكمه لم يزد عن عامين وخمسة أشهر!

---

[1] ـ العقد الفريد، ابن عبد ربه.

العفو

والإمـام العـادل عَفُـوٌّ عـن زلَّات شـعبه، متسـامحٌ أمـام صغير أخطائهم، يعفو ويصفح إن أخطأ أحدهم في حقه، أو أساء إلى شخصه، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة؛ إذ أنه لمَّا أسلم بُجير بن زهير كتب له أخوه كعب قصيدة يلومه فيها ويهجـو فيهـا رسـول الله ﷺ، فلمَّـا بلـغ ذلـك رسـول الله ﷺ أهدر دمَّ كعب بن زهير؛ فالعرب كانوا إذا أنشد فيهم شاعرٌ ترددت القصيدة على ألسنتهم، وإذا سمح النبي ﷺ بالإساءة إليه وإلى الإسلام في الشعر لصار الأمر متداولًا على ألسنة الناس، فكـان لزامًـا على رسـول الله ﷺ أن يهـدر دم الشـاعر الذي يتجرأ عليه أو على الإسلام ليكون عبرةً لمن تسوِّل له نفسه ذلك، فكتب بُجير إلى أخيه كعب يخبره بمقالة رسول الله ﷺ فيــه، فتحركــت في نفــس كعــب مشــاعر الخــوف والإحساس بالذنب، فكتب قصيدته الشهيرة (بانت سعاد)؛

ليعتذر لنبي الله ﷺ ويمدحه، ويروي ذلك ابن القيم عن ابن إسحاق قائلًا: «فلما بلغ كعبًا الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان في حاضره مِن عدوه فقال: هو مقتول، فلما لم يجد من شيء بُدًّا قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ، وذكر خوفه وإرجاف الوشاة به مِن عدوه، ثم خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجلٍ كانت بينه وبينه معرفة من جهينة، كما ذكر لي، فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح، فصلى مع رسول الله ﷺ، ثم أشار إلى رسول الله ﷺ فقال: هذا رسول الله، فقم إليه فاستأمنه[1]، فذكر لي أنه قام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله إنَّ كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير. قال ابن إسحاق: فحدثني

[1] ـ اطلب منه الأمان.

عاصم بن عمر بن قتادة أنه وثب عليه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «دعه عنك فقد جاء تائبًا نازعًا عما كان عليه»[1].

والمشهور أن رسول الله ﷺ عفا عن كعبٍ، رغم قدرته عليه، لكنَّ رسول الله ﷺ كان إذا قدر عفا، وإذا تمكَّن سامح، وفوق عفوه أهدى الرسول ﷺ كعبًا بردته الشريفة؛ حتى إذا رآه أحدٌ ممن سمعوا بإهدار النبي دمه، ولم يسمع بعفو النبي عنه بعد ذلك، ورأى عليه بردة رسول الله ﷺ فهم من ذلك أنه عفا عنه، فلا يقربه بسوء.

ولم يكن النبي الكريم ﷺ بصفته حاكمًا للمسلمين، ورئيسًا لدولتهم يعفو فقط عمن أساء لفظًا، بل إنه عفا عمَّن آذى ومن جرح ومن قتل ومن أخرج، ضاربًا في ذلك المثل لكل من ولي من أمور الناس شيئًا، أن يقبل عذرهم، ويقيل عثرتهم، ويعفو عن مسيئهم، ويسامح مخطئهم.

---

[1] - زاد المعاد، ابن القيم.

الشورى

والإمام العادل لا ينفرد برأيٍ ولا يستبدُّ بقرار، مادام الأمر مباحًا لا نصَّ فيه، فيجتهد رأيه وينظر في آراء من حوله، ويأخذ منه ما يصلح؛ فإنَّ رأْيَ الواحد لا يمكن أن يكون صائبًا في كل المواقف، حتى رسول الله ﷺ -وهو وحيٌ يُوحى، وهو أرجح الناس رأيًا وأكملهم عقلًا- كان كثير المشاورة لأصحابه، ولِمَ لا والأمر بالشورى أمرٌ إلهيٌّ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾[1]، وعلى المشاورة أقام رسول الله ﷺ دولته، وبها حكم رعيته، «وَكَانَ رَسُولُ اللهِ يُكْثِرُ مُشَاوَرَتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَقَالَ[2]: «أَنَبْرُزُ لَهُمْ مِنْ الْمَدِينَةِ، أَمْ نَكُونُ فِيهَا وَنُخَنْدِقُهَا عَلَيْنَا، أَمْ نَكُونُ قَرِيبًا وَنَجْعَلُ ظُهُورَنَا إلَى هَذَا الْجَبَلِ؟» فَاخْتَلَفُوا، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: نَكُونُ مِمّا يَلِي بُعَاثَ إلَى ثَنِيّةِ الْوَدَاعِ إلَى الْجُرْفِ. فَقَالَ قَائِلٌ: نَدْعُ الْمَدِينَةَ خُلُوفًا، فَقَالَ سَلْمَانُ: يَا

[1] - آل عمران 159.
[2] - عندما علم بقدوم الأحزاب.

رَسُولَ اللهِ، إنّا إذْ كُنّا بِأَرْضِ فَارِسَ وَتَخَوّفْنَا الْخَيْلَ خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا، فَهَلْ لَك يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ نُخَنْدِقَ؟ فَأَعْجَبَ رَأْيُ سَلْمَانَ الْمُسْلِمِينَ وَذَكَرُوا حِينَ دَعَاهُمْ النّبِيّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ أَنْ يُقِيمُوا وَلَا يَخْرُجُوا، فَكَرِهَ الْمُسْلِمُونَ الْخُرُوجَ وَأَحَبّوا الثّبَاتَ فِي الْمَدِينَةِ». [1]

«وَشَاوَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ الْفَارِسِيّ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَى أَنْ تَنْصِبَ الْمَنْجَنِيقَ[2] عَلَى حِصْنِهِمْ، فَإِنّا كُنّا بِأَرْضِ فَارِسَ نَنْصِبُ الْمَنْجَنِيقَاتِ عَلَى الْحُصُونِ وَتُنْصَبُ عَلَيْنَا، فَنُصِيبُ مِنْ عَدُوّنَا وَيُصِيبُ مِنّا بِالْمَنْجَنِيقِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ الْمَنْجَنِيقُ طَالَ الثّوَاءُ[3]. فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَعَمِلَ مَنْجَنِيقًا بِيَدِهِ، فَنَصَبَهُ عَلَى حِصْنِ الطّائِفِ». [4]

كان ﷺ إمامًا عادلًا وحاكمًا مستنيرًا، يعي تمامًا أن الشورى هي عماد الدول الناجحة، لم يكن يتعامل مع الناس

---

[1] - للمغازي، الواقدي.
[2] - آلة لقذف النار والحجارة.
[3] - الإقامة.
[4] - المغازي، الواقدي.

بصفته أحب خلق الله إلى الله، لم يتخذ منها ذريعة لينفرد بالرأي ويستبدَّ بالحكم، ولو فعل لما لامه أحدٌ، وأنَّى لأحدٍ أن يلومه وهو حصيف العقل، راجح الفكر، مسدَّد الرأي، وفوق كلِّ هذا فهو رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى، فما بالُ أقوامٍ بعده يعدلون عن الشورى!

وعلى أمر القرآن، وهَدي النبي العدنان سار الخلفاء الراشدين من بعده، وعلى رأسهم أبو بكر؛ إذ استشار الناس فيما يفعل مع المرتدين، «قدم على أبي بكر ﵁ عيينة ابن حصن والأقرع بن حابس في رجال من أشراف العرب، فدخلوا على المهاجرين والأنصار، وقالوا: إنه قد ارتد عامةُ مَن وراءنا وليس في أنفسهم أن يؤدوا إليكم ما كانوا يؤدونه إلى الرسول ﷺ فإن تجعلوا لنا جعلًا نرجع فنكفيكم مَن وراءنا، فدخل المهاجرون والأنصار على أبي بكر فعرضوا عليه الذي عرضوا عليهم، وقالوا: نرى أن تطعم الأقرع وعيينة طعمة يرضيان بها ويكفيانك مَن وراءهما حتى يرجع إليك أسامة

وجيشه[1] ويشتد أمرك، فإننا اليوم قليلٌ في كثير، ولا طاقةَ لنا بقتال العرب. قال أبو بكر هل ترون غير ذلك؟ قالوا: لا. قال: إنكم قد علمتم أنه كان من عهد رسول الله ﷺ إليكم بالمشورة فيما لم يمضِ فيه أمر من نبيكم ولا نزل به الكتاب عليكم وإن الله لم يجمعكم على ضلالةٍ وإني سأشير عليكم وإنما أنا رجل منكم، تنظرون فيما أشرته عليكم وفيما أشرتم به فتجتمعون على أرشد ذلك فإن الله يوفقكم، أما أنا فأرى أن نشد إلى عدونا، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وألا تُرضوا على الإسلام أحدًا، وأن تتأسوا برسول الله ﷺ، فنجاهد عدوه كما جاهدهم، والله لو منعوني عقالًا لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه من أهله وأدفعه إلى مستحقه، فأتمروا يرشدكم الله فهذا رأيي. فقالوا لأبي بكر لما سمعوا رأيه أنت أفضلنا رأيًا ورأينا لرأيك تبع[2]».

---

[1] - وكان أسامة بن زيد قد خرج في جيشٍ لغزو الروم.

[2] - تاريخ الخميس، الدياربكري.

اضطلع برأيه ونفذ ما رآه دون أن يستبدَّ به أو يقهرهم عليه، ودون أن ينتقصهم أو يذمَّ آراءهم، فقط عرض رأيه في بيانٍ واضح، مقنع، وترك لهم أمر الشورى فاختاروا ما اختاره.

وعلى ذلك كانت خلافة الفاروق عمر بن الخطاب؛ إذ كان يستشير أصحابه في كلِّ أمرٍ يعزم عليه، حتى يوم قبضه الله، لم يشأ أن يترك المسلمين قبل أن يطمئن على أمرهم من بعده، «قَالُوا: أَوْصِ يَا أَمِيرَ المؤْمِنِينَ، اسْتَخْلِفْ، قَالَ: مَا أَجِدُ أَحَدًا أَحَقَّ بِهَذَا الأَمْرِ مِنْ هَؤُلاَءِ النَّفَرِ، أَوِ الرَّهْطِ، الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، فَسَمَّى عَلِيًّا، وَعُثْمَانَ، وَالزُّبَيْرَ، وَطَلْحَةَ، وَسَعْدًا، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ[1]، وَقَالَ: يَشْهَدُكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ - كَهَيْئَةِ التَّعْزِيَةِ لَهُ - فَإِنْ أَصَابَتِ الإِمْرَةُ سَعْدًا فَهُوَ ذَاكَ، وَإِلَّا فَلْيَسْتَعِنْ بِهِ أَيُّكُمْ مَا أُمِّرَ، فَإِنِّي لَمْ أَعْزِلْهُ عَنْ عَجْزٍ، وَلاَ خِيَانَةٍ.

[1] - علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفَّان، والزبير بن العوَّام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد ابن أبي وقَّاص، وعبد الرحمن بن عوف.

فَلَمَّا قُبِضَ خَرَجْنَا بِهِ، فَانْطَلَقْنَا نَمْشِي، فَسَلَّمَ عَبْدُ اللهِ ابْنُ عُمَرَ، قَالَ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، قَالَتْ[1]: أَدْخِلُوهُ، فَأُدْخِلَ، فَوُضِعَ هُنَالِكَ مَعَ صَاحِبَيْهِ، فَلَمَّا فُرِغَ مِنْ دَفْنِهِ اجْتَمَعَ هَؤُلاَءِ الرَّهْطُ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: اجْعَلُوا أَمْرَكُمْ إِلَى ثَلاَثَةٍ مِنْكُمْ، فَقَالَ الزُّبَيْرُ: قَدْ جَعَلْتُ أَمْرِي إِلَى عَلِيٍّ، فَقَالَ طَلْحَةُ: قَدْ جَعَلْتُ أَمْرِي إِلَى عُثْمَانَ، وَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ جَعَلْتُ أَمْرِي إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَيُّكُمَا تَبَرَّأَ مِنْ هَذَا الأَمْرِ، فَنَجْعَلُهُ إِلَيْهِ وَاللهُ عَلَيْهِ وَالإِسْلاَمُ، لَيَنْظُرَنَّ أَفْضَلَهُمْ فِي نَفْسِهِ؟ فَأُسْكِتَ الشَّيْخَانِ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَفَتَجْعَلُونَهُ إِلَيَّ، وَاللهُ عَلَيَّ أَنْ لاَ آلُ[2] عَنْ أَفْضَلِكُمْ، قَالاَ: نَعَمْ، فَأَخَذَ بِيَدِ أَحَدِهِمَا فَقَالَ: لَكَ قَرَابَةٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَالقَدَمُ فِي الإِسْلاَمِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، فَاللهُ عَلَيْكَ لَئِنْ أَمَّرْتُكَ لَتَعْدِلَنَّ، وَلَئِنْ أَمَّرْتُ عُثْمَانَ لَتَسْمَعَنَّ، وَلَتُطِيعَنَّ، ثُمَّ خَلاَ بِالآخَرِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ

---

[1] ـ السيدة عائشة؛ إذ استأذنها عمر أن يُدفن مع صاحبيه؛ محمدٍ وأبي بكر.
[2] ـ لا أقصِّر في اختيار أفضلكما، وفي هذ إشارة لانسحابه من الترشيح للخلافة.

ذَلِكَ، فَلَمَّا أَخَذَ المِيثَاقَ قَالَ: ارْفَعْ يَدَكَ يَا عُثْمَانُ، فَبَايَعَهُ، فَبَايَعَ لَهُ عَلِيٌّ، وَوَلَجَ أَهْلُ الدَّارِ فَبَايَعُوهُ». [1]

هكذا كانت الشورى أيَّام عزِّ المسلمين، كانت الشورى تحكم الحاكم قبل أن تحكم المحكومين، تُلزم الرئيس قبل أن تُلزم المرءوسين، لكنَّ الشورى لا تكون إلا لأهل الحل والعقد، ولا تكون للعوام الذين يفتقرون للوعي اللازم والإدراك الكامل لكافة جزئيات الصورة الكليَّة، وإن أراد العامة أن يشاركوا في في اختيار حكَّامهم فعليهم أن يتسلَّحوا بهذا الوعي وذلك الإدراك الذي يمكِّنهم من إحسان الاختيار المبني على العقل لا على العاطفة؛ ليكون القرار المُتَّخَذ عن قناعاتٍ تامة ذات مرجعية أصيلة، وليس وليد اللحظة حديث النشأة هشَّ الفكرة سريع التغيُّر.

[1] - صحيح البخاري.

قبول النصح والرجوع عن الخطأ

والإمام العادل وقَّافٌ عند الخطأ، رجَّاعٌ إلى الحق، سمَّاعٌ للنصح، آخَّاذٌ به، لا تأخذه العزَّةُ بالإثم، بل إنَّه يبادرُ إلى إصلاح خطئه، والانتفاع بالنصيحة، وشكر الناصح، كما كان من سيدنا داود عليه السلام إذ حكم حكمًا بين خصمين فراجعه فيه ابنه سليمان عليه السلام فانحاز سيدنا داود لحكم ابنه الراجح ونزل عن حكمه ضاربًا المثل في الانحياز للحق ولا شيء دونه، وتفصيل تلك القصة كما جاء في سورة الأنبياء: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾[1]، يقول فخر الدين الرازي: «قال أكثر المفسرين: دخل رجلان على داود عليه السلام، أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الحرث: إن غنم هذا دخلت حرثي وما أبقت منه شيئًا، فقال داود عليه السلام:

---

[1] - الأنبياء 78.

اذهب فإنَّ الغنم لك. فخرجا فمرَّا على سليمان، فقال: كيف قضى بينكما؟ فأخبراه: فقال: لو كنت أنا القاضي لقضيت بغير هذا. فأخبر بذلك داود عليه السلام، فدعاه، وقال: كيف كنت تقضي بينهما؟ فقال: أدفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له منافعها من الدَّرِ والنَّسلِ والوبرِ[1] حتى إذا كان الحرث من العام المستقبَل كهيئته يوم أُكِل دفعت الغنم إلى أهلها، وقبض صاحب الحرث حرثه»، «قال ابن عباس رضي الله عنهما: حكم سليمان بذلك وهو ابن إحدى عشرة سنة».[2]

لم يمنع داود عليه السلام صغر سن سليمان عليه السلام، لم يقل إنه طفلٌ لا يفهم في أمور القضاء، ولا دخل له في شئون الدولة، ولم يتحرَّج أن يرُدَّ حكمه مادام هناك حكمٌ أرجح، ورأيٌ أصوب، ولم تكن هذه الحادثة هي الحادثة الوحيدة التي ردَّ فيها سليمان حكم أبيه عليهما السلام، «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ:

---

[1] - الدر: ما تدره من ألبان، النسل: الولد، الوبر: الصوف.
[2] - مفاتح الغيب، فخر الدين الرازي.

«بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ، فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ هَذِهِ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ أَنْتِ، وَقَالَتِ الْأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ، فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عليهما السلام، فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَكُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا، يَرْحَمُكَ اللهُ، هُوَ ابْنُهَا، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى»[1].

قال العلماء: يحتمل أنَّ داود عليه السلام قضى به للكبرى؛ لشبهٍ رآه فيها، أو أنه كان في شريعته الترجيح بالكبير، أو لكونه كان في يدها، وكان ذلك مرجحًا في شرعه. وأما سليمان فتوصل بطريق من الحيلة والملاطفة إلى معرفة باطن القضية، فأوهمهما أنه يريد قطعه؛ ليعرف من يشقُّ عليها قطعُه فتكون هي أمَّه، فلما أرادت الكبرى قطعه عرف أنها ليست أمه، ولما قالت الصغرى ما قالت عرف أنها أمه، ولم يكن مراده أنه يقطعه حقيقةً، وإنما أراد اختبار شفقتهما؛ لتتميز له

[1] - صحيح مسلم.

الأم، فلما تميزت بما ذكرت عرفها، فلا مانع أبدًا من بعض الاحتيال للوصول إلى الحقيقية.

ولم يأنف سيدنا داود عَلَيْهِ السَّلَامُ ولم يستنكف أن ينزل على حكم ابنه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنَّما اختار الحكم الصائب وإن لم يكن حكمه، وتقبَّل المراجعة والمناصحة بصدرٍ رحب ودون غضاضة ولا كراهة، ورجع عن حكمه لما رأى حكمًا أصوب من حكمه، ورأيًا أعدل من رأيه.

تقبُّل النقد والمحاسبة

والإمام العادل لا يرى نفسه فوق الناس، ولا يخال أنَّه خيرٌ منهم، ولا يحسب أنه لا يُنتقد ولا يُحاسب، ولا يقمع حريات شعبه، ولا يكمم أفواههم، بل إنَّ الحق يلزمه أن يقبل المعارضة، ويسمع للنقد، بل ويدعو الناس إلى إرشاده للحق إن حاد عنه، وإرجاعه للجادةِ إن عدل عنها، ومما جاء في خطبة أبي بكرٍ يوم السقيفة: «أما بعد، أيها الناس، فإنِّي قد

وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيرِكم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني..»[1]، ولعلك تعرف أن قائل هذا الكلام هو أول من أسلم من الرجال، وهو رفيق النبي ﷺ وصاحبه، وهو ثاني اثنين إذ هما في الغار، وهو في الجنة بصريح حديث رسول الله، ومع ذلك يقول عن نفسه: لستُ بخيركم، ثم يطالبهم بتقويمه إن أساء، لا يكتفي بقبول النقد، بل يطالب به، ويدعو إلى معارضته إن أساء أو أخطأ!

وهذا ليس مجرد كلام فارغ يُقال في خطبٍ، ولا شعارات جوفاء تُطلق في الهواء، حتى إذا جاء وقت النقد أصمَّ الحاكم أذنه، وأعمى بصره، وأشاح بوجهه، بل وربما أعمل سوطه في منتقده، وحاكم معارضيه، وتخلَّص منهم، بل إنه يأبى إلا أن يسمعها، ويكف من يعمد إلى منعها عنه، وإذا قيل له اتَّقِ الله لا تأخذه العزة بالإثم، «عن الحسن البصري أن رجلًا قال لعمر ابن الخطاب: اتَّقِ اللهَ يا عمر، وأكثر عليه، فقال له قائل:

---

[1] - البداية والنهاية، ابن كثير.

اسكت، فقد أكثرت على أمير المؤمنين. فقال له عمر: دعه، لا خير فيهم إن لم يقولوها لنا، ولا خير فينا إن لم نقبل. وأوشك أن يرد على قائلها». [1]

قال لعمر بن الخطاب: اتَّقِ الله! ولم ترمَّل زوجته، ولم يُيَتَّم أولاده، ولم تثكله أمه، ولم يذهب وراء الشمس، بل حادثه عمر وناقشه، وانتهى الأمر.. فقط!

البساطة والتواضع

والإمام العادل بسيط مع شعبه، متواضع مع محكوميه، لا يحكمهم من برجه العاجي، ولا يتعالى عليهم، ولا يترفَّع معهم، بل يخالطهم ويآلفهم، «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ كَانَ اسْمُهُ زَاهِرَ بْنَ حَرَامٍ، وَكَانَ يُهْدِي لِلنَّبِيِّ ﷺ الْهَدِيَّةَ مِنَ الْبَادِيَةِ، فَيُجَهِّزُهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتُنَا ، وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ»، قَالَ:

[1] - الخراج، أبو يوسف.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّهُ، وَكَانَ دَمِيمًا، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا ، وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ، فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ، وَهُوَ لا يُبْصِرُهُ، فَقَالَ: أَرْسِلْنِي، مَنْ هَذَا؟ فَالْتَفَتَ، فَعَرَفَ النَّبِيَّ ﷺ، فَجَعَلَ لا يَأْلُو مَا أَلْزَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ عَرَفَهُ[1]، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذن وَاللهِ تَجِدُنِي كَاسِدًا[2]، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَكِنْ عِنْدَ اللهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ»، أَوْ قَالَ: «لَكِنْ عِنْدَ اللهِ أَنْتَ غَالٍ».[3] لم تمنعه دمامة الرجل، ولا رقة حاله، من أن يتبسَّط معه، ويتقرَّبُ إليه، ويحتضنه، ويمازحه، ويعلي من قدره، ويرفع من شأنه.

والبساطةُ سمة الحاكم العادل، في سائر حياته، ومع كل من حوله، فهو في بيته هيِّنٌ ليِّن، هاشٌّ باشٌّ، يخدم نفسه، بل ويخدم أهله أيضًا، «عَنْ عُرْوَةَ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ يَصْنَعُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكِ؟

---

[1] - أي يجتهد في الاقتراب من رسول الله أكثر.
[2] - كسد الشيء: أي قلت الرغبة فيه، ولم يجد من يشتريه.
[3] - أخرجه ابن حبان، والبغوي في شرح السنة، وصححه الألباني.

قَالَتْ: مَا يَفْعَلُ أَحَدُكُمْ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ[1]؛ يَخْصِفُ نَعْلَهُ[2]، ويَخِيطُ ثوبه، ويَرْقَعُ دَلْوَهُ». [3]

رئيس دولة المسلمين لا يكتفي بخدمة نفسه، إنما يخدم أهله، لا يرجع إلى بيته ليتمدد ويأمر هذا وينهى هذه، بل يخدم نفسه وأهله، تخطَّى الخمسين والستين من عمره، وعلى عاتقه رسالة السماء، وهداية الأرض، وإمامة الناس في السلم والحرب، وله من الزوجات تسعٌ، ومن البنات أربع، لكنه لا يتكلَّف ولا يتكبَّر، بل يخدم نفسه ويخدمهنَّ!

وهذا التبسُّط، وذلك التواضع لا يكون مع صاحبٍ ولا صديقٍ ولا زوجةٍ فحسب، وإنما يكون مع عامة الناس، ولا تغيِّره ولاية، ولا يفسده منصب، إنَّما يبقى على تواضعه وبساطته، مهما علت به المناصب، روى ابن الجوزي عن أبي بكر الصديق: «وأنه لما استُخْلِفَ أصبح غاديًا إلى السوق،

---

[1] - في خدمة أهله.
[2] - يخرزها بالمخصف.
[3] - رواه ابن حبَّان، وصححه الألباني.

وكـان يحلـب للحـي أغنـامهم قبـل الخلافـة، فلمـا بويـع قالـت جارية من الحي: الآن لا يحلب لنا. فقال: بلى لَأحلبَنَّها لكم، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه».[1]

يحلب الشياه لأهل الحي، ولا يسمح لمنصبه الجديد أن يحرمه فضيلةً كانت لديه، ولا معروفًا كان يسديه للناس، بل يستمرُّ في خدمة الناس رغم مهامه الجديدة، وأعبائه الثقيلة، «حـدثنا الأوزاعـي، أن عمـر بـن الخطـاب ﵁ خـرج في سـواد الليـل، فـرأه طلحـة، فـذهب عمـر فـدخل بيتًـا، ثم دخـل بيتًـا آخر، فلمـا أصبح طلحة ذهـب إلى ذلـك البيت فـإذا بعجـوز عمياء مقعدة، فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالـت: إنـه يتعاهـدني منـذ كـذا وكـذا، يـأتيني بمـا يصـلحني، ويخـرج عـني الأذى، فقـال طلحـة: ثكلتـك أمـك يـا طلحـة، أعثـرات عمـر تتبع؟[2]»، ينذر نفسه لخدمة من يحتاج إلى الخدمة، فيصلح لهم

[1] - التبصرة، ابن الجوزي.
[2] - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الأصبهاني.

أحوالهم، ويقدِّم لهم ما يحتاجون، ويدفع عنهم الأذى، وينظِّف لهم بيوتهم في بساطةٍ وتواضع.

ومن أهمِّ مظاهر البساطة والتواضع أن يلبس الحاكم مما يلبس منه المحكومين، فلا يتعالى عليهم بزيٍّ مخصوص، ولا يتزيَّن متفاخرًا عليهم بما لا يمتلكون، وكذلك يأكل مما يأكلون، ولا يميز نفسه بطعامٍ لا تأكله العامة، «قال أنس: رأيت عمر بن الخطاب وهو يومئذ أمير المؤمنين، قد رقع بين كتفيه برقاعٍ ثلاثٍ لبَّد بعضها فوق بعض[1]، وقال أنس: وقد رأيت يُطرح له صاع تمر فيأكله حتى يأكل حشفه[2]».[3]

فهو لا يميِّز نفسه بأفضل ما في الطعام ويطرح رديئه لغيره، أو حتى ليُلقى، إنَّما يأكل ما يوضع أمامه؛ نقيًّا كان أم رديئًا، ولا يتأفف، ولا يستنكف، وهو أيضًا يُدرك تمامًا أن الملابس إنما جُعلت للستر لا للفخر، فما يُصلحه الترقيع رقَّعه،

[1] ـ أي ثلاث رقاع وضعها فوق بعضها مكان قطع الثوب.
[2] ـ أي رديئه.
[3] ـ الموطأ، الإمام مالك.

«قال[1]: خطب عمر وهو خليفة، وعليه إزارٌ فيه اثنتا عشرة رقعة»[2].

فالحاكم عامل عند شعبه، لا يتميَّز عنهم بمزية، ولا يتفضَّل عليهم بشيء، بل إنه يجالسهم ويؤاكلهم، مع رقَّة حالهم، وهوانهم على الناس، «قال أبو محذورة: كنت جالسًا عند عمر رضي الله عنه إذ جاء صفوان بن أمية بجفنة[3] يحملها نفرٌ في عباءة، فوضعوها بين يدي عمر، فدعا عمر ناسًا مساكين وأرقَّاء[4] من أرقَّاء الناس حوله، فأكلوا معه ثم قال عند ذلك: فعل الله بقومٍ (أو قال لحى الله قومًا[5]) يرغبون عن أرقائهم أن يأكلوا معهم.»[6]، يجلس متواضعًا مع فقراء الحي، لا ليطعمهم، ولكن ليطعم معهم في بساطةٍ وتواضع.

---

[1] - أي أنس.
[2] - شرح السنة، البغوي.
[3] - قصعة للطعام.
[4] - الفقراء والمحتاجين.
[5] - أي قبَّحهم ولعنهم.
[6] - رواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني.

مباشرة الأمور بنفسه

والإمام العادل لا يكتفي بالجلوس في مكتبه المكيَّف، وتوجيه الأوامر والنواهي لعمَّاله، وإنَّما يشمِّرُ عن ساعد العمل، ويباشر مهامه بنفسه، مدركًا أنَّه مسئولٌ، وكلمة مسئول ليست كما يفهمها أصحاب المناصب على أنها تشريفٌ لصاحبها، بل هي عبءٌ ثقيلٌ يُلقى على كاهله، فهو موقوفٌ يوم القيامةِ أمام الله يحاسبه عن كلِّ من كانوا في ولايته، يسأله عنهم فردًا فردًا، فعليه أنَّ يُعدَّ نفسه لهذا السؤال، ويجهِّزَ جوابًا منجيًا، ولا يكون ذلك إلا بأن ينهض بأمورهم خير نهوض، ويضطلع بأحوالهم على أفضل وجهٍ، ويُباشر أمرهم بنفسه، ولا يوكِّل أحدًا فيما يقدر هو على القيام به؛ لأنَّه لن يوكِّل أحدًا للحساب عنه يوم القيامة، «قال أسلم: خرجت ليلة مع عمر إلى حرة واقم[1]، حتى إذا كنا بصرار[2] إذا بنار، فقال: يا أسلم،

[1] - موضع شرقي المدينة.
[2] - موضع قريبٍ من الموضع السابق.

ههنا ركبٌ قد قصر بهم الليل، انطلق بنا إليهم، فأتيناهم فإذا امـرأةٌ معهـا صـبيان لهـا وقـدرٌ منصـوبة علـى النـار وصـبيانها يتضاغون[1]، فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء، قالـت: وعليـك السـلام.قال: أدنـو؟ قالـت: ادنُ أو دع. فـدنا فقال: ما بالكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد. قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: من الجوع. فقال: وأي شيء على النار؟ قالت: ماء أعللهم[2] به حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر. فبكى عمر ورجع يهرول إلى دار الدقيق فأخرج عِدلًا[3] من دقيق وجراب شحم، وقال: يا أسلم احمله على ظهري، فقلت: أنا أحمله عنك. فقال: أنت تحمل وزري يوم القيامة؟ فحمله على ظهره وانطلقنا إلى المرأة فألقى عن ظهره وأخرج من الدقيق في القدر، وألقى عليه من الشحم، وجعل ينفخ تحت القدر والدخان يتخلل لحيته ساعة، ثم أنزلها عن النار

[1] - يتصايحون في ألم.
[2] - أصبِّرهم.
[3] - نصف الحِمل يكون على أحد جنبي البعير.

وقال: إيتيني بصحفة[1]. فأتى بها فغرفها ثم تركها بين يدي الصبيان وقال: كلوا، فأكلوا حتى شبعوا – والمرأة تدعو له وهي لا تعرفه – فلم يزل عندهم حتى نام الصغار، ثم أوصلهم بنفقةٍ وانصرف».[2]

يتفقَّد رعيته بنفسه، ويحمل الدقيق على ظهره، ويُعدُّ الطعام بيده، مُقدِّرًا مسئولياته، واعيًا بدوره، مدركًا أن أحدًا لن يحمل عنه يوم القيامة، فلا يدع أحدًا يحمل عنه في الدنيا، لِمَ لا وقد تربَّى على ذلك في مدرسة النبوة، ورأى ذلك بأمِّ عينيه من أعدل حكَّام الأرض ﷺ، رآه وهو يقف مع أصحابه كتفًا بكتف، ويشاركهم ساعدًا بساعد، بل إنَّه كان يضطلع بما تعسَّر عليهم، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، قَالَ: وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنْ الخَنْدَقِ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ[3]، قَالَ: فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَاءَ

---

[1] - إناء للطعام.
[2] - البداية والنهاية، ابن كثير.
[3] - أي لا تستطيع الفئوس كسرها.

رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ عَوْفٌ - وَأَحْسِبُهُ قَالَ- : وَضَعَ ثَوْبَهُ ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ، فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ، فَقَالَ: «بِسْمِ اللهِ»، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا» ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللهِ»، وَضَرَبَ أُخْرَى، فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا» ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللهِ» وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»[1].

بيديه الكريمتين الشريفتين يحمل المعول، ويعمل دون كللٍ أو ملل، ضاربًا المثل لكلِّ مَن رأى نفسه مسئولًا، أو صاحب منصبٍ، أو ذا وجاهةٍ، أنَّ القدوة لا تكون كلامًا يُقال، إنما صنائعُ وفِعال، وعلى مثل هذا يكون الرجال.

---

[1] - رواه أحمد في مسنده.

تفقُّد الرعية

والإمـام العـادل –كـذلك- لا يجعـل بينـه وبـين رعيتـه وسـطاء، ولا يضـع بينـه وبيـنهم أبوابًـا، ويجعـل عليهـا حرسًـا وحُجَّابًـا، إنمـا يعـيش معهـم، ويسـير بيـنهم، يتفقـد أحـوالهم، ويشـعر بهمـومهم، ويعـرف صـغيرهم وكبـيرهم، ويسـأل عـنهم، ويهتم بهم، حتى من لا يُأبهُ لهُ، عَنْ أَبِي بَرْزَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي مَغْزًى لَهُ فَأَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: «هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ»، قَالُوا: نَعَمْ، فُلاَنًا وَفُلاَنًا وَفُلاَنًا. ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ». قَـالُوا: نَعَـمْ فُلاَنًـا وَفُلاَنًـا وَفُلاَنًـا، ثُمَّ قَـالَ: «هَـلْ تَفْقِـدُونَ مِـنْ أَحَـدٍ». قَـالُوا: لاَ. قَـالَ: «لَكِـنِّى أَفْقِـدُ جُلَيْبِيبًـا[1] فَـاطْلُبُوهُ». فَطُلِـبَ فِى الْقَتْلَـى فَوَجَـدُوهُ إِلَى جَنْـبِ سَـبْعَةٍ قَـدْ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قَتَلُوهُ فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ فَوَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «قَتَلَ سَبْعَةً ثُمَّ قَتَلُوهُ، هَذَا مِنِّى وَأَنَا مِنْهُ هَذَا مِنِّى وَأَنَا مِنْهُ». قَالَ فَوَضَعَهُ

---

[1] - جليبيب: رجل من بسطاء الصحابة، حتى إنهم كانوا يكرهون أن يزوجوه لفقره ورقة حاله .

عَلَى سَاعِدَيْهِ لَيْسَ لَهُ إِلاَّ سَاعِدَا النَّبِيِّ ﷺ قَالَ فَحُفِرَ لَهُ وَوُضِعَ فِي قَبْرِهِ. وَلَمْ يَذْكُرْ غَسْلاً». [1]

يسأل عنهُ وقد نسيه الناس، يهتم به وقد أهمله الناس، لم يكن ذا قدرٍ بينهم، لكن الرسول الكريم ﷺ يهتم ببسطاء الصحابة قبل أكابرهم إن صح التعبير، لأنهم كانوا سواسية كأسنان المشط في نظره، فكانوا على حدٍّ السواء في اهتماماته، فتراه يبحث عن جليبيب، ويحمله بنفسه إلى مثواه الأخير، ويقول: هذا مني وأنا منه، فما أسعدك يا جليبيب!

وكذلك على الإمام العادل أن يتفقَّد أعمال رعيته، وأن يطوف بأسواقهم بنفسه في زياراتٍ ميدانية حقيقية، دون ترتيب ولا تحضير ولا مواعيد مسبقة، ودون أن تُنظف الطرقات خصيصًا لقدوم سيادته، وتُعدَّل الأمور وتُبدَّل ليراها في أبهى صورة، وأزهى حلة، حتى إذا انتهى من رحلته – المفاجئة!– عادت الأمور لما كانت عليه من قبل، «عَنْ أَبِي

---

[1] - صحيح مسلم.

هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ[1] فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟». قَالَ أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ[2] يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّى»[3].

وعلى الإمام العادل الذي لن يتمكن بطبيعة الحال من تفقُّد كل الأمور بنفسه ولا مباشرتها شخصيًّا أن يعيِّن من يعينه في ذلك ويساعده عليه، لتحقيق المهمة الملقاة على عاتقه، ولا ينسى بعد ذلك أنه المسئول الأول وإن عيَّن ألف مساعد، «بلغني أن عمر بن الخطاب قال: لو ماتت سَخْلَة[4] على شاطئ الفرات ضيعةً[5] لخفت أن أُسأل عنها»[6].

يخشى أن يسأله الله عن حيوانٍ في أقصى الأرض، فكيف بمن يتركون الناس يموتون كلَّ يومٍ في تصادم القطارات،

---

[1] ـ الصبرة: الكومة المجموعة من غير كيل وميزان.
[2] ـ المطر.
[3] ـ صحيح مسلم.
[4] ـ الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد.
[5] ـ إهمالًا.
[6] ـ شعب الإيمان، البيهقي.

وغرق العبَّارات، وانهيار العقارات، وحوادث السيارات، وكلها كوارث كان بالإمكان تفاديها لو أنفقت موارد الدولة في مصارفها الصحيحة، ولو خصصت أموال الشعب في تدعيم البنية التحتية المتهالكة، بدلًا من إنفاقها في مؤتمرات ومشروعات لا جدوى منها ولا طائل من ورائها!

حُسن التصرُّف في الموارد

والإمام العادل حكيمٌ في النفقة، لا يضعُ الأموال إلا في مواضعها، ولا يوجِّهُها إلا إلى مصارفها، فلا تُنفق الأموال التي استأمنته عليها رعيته بذخًا فيما لا ينفع ولا يفيد، ولا يأخذ من أرزاق الفقراء ليعمِّر قصورَه، ولا يأخذ من أقوات البسطاء ليقيم الولائم للرؤساء والسفراء والوزراء، ولا يضيِّع موارد الدولة عبثًا بإنفاقها على المظاهر، فلا يدعوه ادِّعاء الورع والتظاهر بالتقوى إلى إنشاء مساجد ودور عبادة على أحدث طراز وبأعلى إمكانات مدعيًا بذلك ابتغاء وجه الله، بل عليه أن

يتذكَّر أن رسول الله ﷺ بعد أن فتح الله عليه الأمصار كان بمقدوره أن يعيد بناء الكعبة من الذهب الخالص، وأن يحلِّيها بالجواهر واللآلئ والأحجار الكريمة، لكنه لم يفعل لأنه ﷺ يدرك أن الله لا ينظر إلى صورنا ولا إلى أجسامنا، فهل ينظر إلى حداثة معمار مساجدنا، أوبراعة بنيانها وتناسق ألوانها، فإذا كان ذلك يجري على بيوت الله فما بال بيوت الرؤساء والوزراء والوجهاء، على الإمام العادل أن يدرك أنَّه مستخلفٌ في هذا المال، ومسئولٌ عنه، فليقم بمسئوليته وليرِ اللهَ من نفسه حُسنًا، «عن يزيد بن أبي حبيب، أن أبا بكر لما قدم عليه المال جعل الناس فيه سواء، وقال: وددت أني أتخلص مما أنا فيه بالكفاف»[1]، فقد ساوى في الأعطيات ولم يفضِّل خاصته ولا عسكره ولا قضاته عن العوام بشيء!

وعلى الإمام العادل أن ينظر كيف كان الراشدون العادلون يحسنون التصرف في موارد الدولة، «كتب عمر ابن

---

[1] ـ الأموال، القاسم بن سلام.

عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن، وهو بالعراق: أن «أخرج للناس أعطياتهم»، فكتب إليه عبد الحميد: إني قد أخرجت للناس أعطياتهم، وقد بقي في بيت المال مال، فكتب إليه: أن «انظر كل من ادَّان في غير سَفَهٍ ولا سَرَفٍ فاقضِ عنه»، فكتب إليه، إني قد قضيت عنهم، وبقي في بيت مال المسلمين مال، فكتب إليه: أن «انظر كلَّ بكرٍ ليس له مالٌ فشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه»، فكتب إليه: إني قد زوجت كل من وجدت، وقد بقي في بيت مال المسلمين مال، فكتب إليه بعد مَخْرَجِ هذا: أن «انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنَّا لا نريدهم لعام ولا لعامين»[1].

المال يوزَّع على الرعية وفيما ينفع الرعية، ولا يُنفق سفهًا ولا سرفًا ولا بذخًا في وجوهٍ لا طائلَ منها ولا نفعَ يُرجى من ورائها.

[1] - الأموال، القاسم بن سلام.

وعلى الإمام العادل أن يدرك أنَّ موارد الدولة ليست ملكًا له، وأنَّ التصرُّف فيها ليس حكرًا عليه، فإنما هو مؤتمن عليها، يتصرَّف فيها بما يأتي بالنفع على أصحابها، وأنه ليس له من الدولة إلا كما لأصغر مواطنيها، فإنَّما مثله ومثل رعيته كمثلِ سائقِ حافلةٍ، وهم ركَّابُها، فلا يحقُّ له أن يتحكم فيها وفيهم كيف يشاء، ولا يظن إطلاقًا أنَّ له أي امتيازٍ فيها غير أنهم ارتضوه على كرسي القيادة، وعليه أن يثبت أنَّه جديرٌ به، وإلَّا أقاموه من عليه، وبحثوا عن آخر يوصِّلهم إلى حيث يشاءون، وأوَّل ما يجب عليه ألَّا يختار طريقًا غير الذي ارتضاه مستقلِّو الحافلة، وأن يتقدَّمَ بها إلى الأمام حيث الهدف الموضوع مسبقًا، وبالسرعة المناسبة لإمكانات الحافلة، لا لقدراته هو، ولا لطموحات الركَّاب، وليس بالضرورة أن يسبق بقية الحافلات، لكنه لا يقف إلى جانب الطريق ويكتفي بمشاهدتها وهي تتقدم، مدَّعيًا أنَّ الحافلة محدودة الإمكانات، أو أنَّ الركَّاب لم يساعدوه ولم يقوموا بأدوارهم!

الاقتصاد في الضرائب

والإمام العادل لا يسرف في فرض الضرائب، فهي من المنكرات في الدين، وهي من الكبائر، بل وأكبر إثمًا من الزنا، «حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ امْرَأَةً - يَعْنِي - مِنْ غَامِدٍ، أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ فَجَرْتُ، فَقَالَ: «ارْجِعِي»، فَرَجَعَتْ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ الْغَدُ أَتَتْهُ، فَقَالَتْ: لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ، فَوَاللهِ إِنِّي لَحُبْلَى، فَقَالَ لَهَا: «ارْجِعِي»، فَرَجَعَتْ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ أَتَتْهُ، فَقَالَ لَهَا: «ارْجِعِي حَتَّى تَلِدِي»، فَرَجَعَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ، فَقَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ، فَقَالَ لَهَا: «ارْجِعِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ» فَجَاءَتْ بِهِ وَقَدْ فَطَمَتْهُ، وَفِي يَدِهِ شَيْءٌ يَأْكُلُهُ، فَأَمَرَ بِالصَّبِيِّ فَدُفِعَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا، وَأَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، وَكَانَ خَالِدٌ فِيمَنْ يَرْجُمُهَا، فَرَجَمَهَا بِحَجَرٍ فَوَقَعَتْ قَطْرَةٌ مِنْ دَمِهَا عَلَى وَجْنَتِهِ، فَسَبَّهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

«مَهْلًا يَا خَالِدُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ»، وَأَمَرَ بِهَا فَصُلِّيَ عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ»[1].

وصاحب المكس هو الذي يفرض الضرائب على الناس، وقال النووي : «فيه أن المكس من أقبح المعاصي والذنوب الموبقات وذلك لكثرة مطالبات الناس له وظلاماتهم عنده، وتكرر ذلك منه وانتهاكه للناس وأخذ أموالهم بغير حقها وصرفها في غير وجهها»[2].

ويجوز للدولة فرض الضرائب بشكلٍ استثنائي وبشروط؛ أولها أن تكون عادلة لا تُرهق بها طائفة دون طائفة، ولا يسوَّى فيها بين الأغنياء والفقراء، بل تُفرض على الأغنياء، وثانيها أن تكون لضرورة مُلحَّة مثل خواء بيت مال المسلمين، والحاجة لتسليح الجيش وقت الحرب، وثالثها أن تكون استثناءً وليس نظامًا دائمًا ثابتًا يمصُّ دماء الناس ويستقطع من أقواتهم

---

[1] - رواه أبو داود في سننه وصححه الألباني.
[2] - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي.

وأرزاقهم لتُنفق على الأغنياء والسفهاء من أهل اللهو في الحفلات والمباريات ونحوها، وقد سُئل الشيخ ابن عثيمين في لقاء الباب المفتوح[1]: فضيلة الشيخ! الرسوم التي تؤخذ لتجديد الاستمارة أو الرخصة هل تعتبر من الضرائب؟ فكان ردُّه: إي نعم، كل شيء يؤخذ بلا حق فهو من الضرائب، وهو محرم، ولا يحل للإنسان أن يأخذ مال أخيه بغير حق.

وحتى إذا ألجأت الحاجة الحاكم إلى فرض ضرائب على الناس فلابد من مراعاة الحال، والأخذ من الأغنياء دون الفقراء، حتى إذا استووا ومازالت الحاجة قائمة والضرورة ماسة أُخذ من الجميع على حدٍّ سواء، وقد كان لسلطان العلماء العزِّ بن عبد السلام موقفٌ عظيمٌ في هذا الصدد؛ إذ أراد قطز أن يفرض الضرائب على العوام حتى يستعد لملاقاة التتار، فوقف الشيخ في شجاعةٍ يُحسدُ عليها قائلًا: «إنّه إذا طرق العدوُّ بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم، وجاز لكم أن

[1] - لقاءات كان يعقدها الشيخ بمنزله كل خميس. بدأت 1412هـ حتى 1421هـ.

تأخذوا من الرعيَّة ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألَّا يبقى في بيت المال شيء، وتبيعوا ما لكم من الحوائص[1] المذهبة والآلات النفيسة، ويقتصر كلُّ الجند على مركوبه وسلاحه ويتساووا هم والعامَّة، وأمّا أخذ الأموال من العامّة مع بقايا فى أيدى الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا!»[2].

فلما كان ما أفتى به الشيخ، كان نصر الله على التتار وذهاب ريحهم إلى الأبد.

النزاهة

وعلى الإمام العادل أن يُنزِّه نفسَه عن كل دناءة، ويصون شرفه عن أموال الناس، وأن يحرص كل الحرص على طهارة يده ونقاء سيرته، فلا يدنِّس يده بما ليس له، ولا يملأ جيبه بما لغيره، «قال سفيان: حدثني مولى لعروة بن محمد،

[1] - الحزام، يكون للرجل أو للدابة.
[2] - النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي.

قال: خرج عروة بن محمد من اليمن وقد وليها سنين وما معه إلا سيفه ورمحه ومصحفه. قال: وبلغني أنه لما دخل قال: يا أهل اليمن هذه راحلتي فإن خرجت بأكثر منها فأنا سارق، وَقَال يَعْقُوب بْن سفيان، عن علي بن المديني: ولي عروة ابن محمد اليمن عشرين سنة وخرج حين خرج ومعه سيف ومصحف» [1].

لم تمتلئ جيوبه بالأموال، ولم يتضاعف رصيده في البنوك أضعافًا مضاعفة، لم ينل من المنصب سوي النَّصَبِ، لا النَّصْبِ، يعلم أنَّ الله رقيبه ومحاسبه وسائله، فاستعدَّ لذلك السؤال بالترفُّع عن الدنيا وتنزيه نفسه عن أي عَرَضٍ زائل وظلٍّ حائل، فلا يقربه مهما كان، ولو كان محتاجًا، «أرسل عمر إلى عبد الرحمن بن عوف يستسلفه أربعمائة درهم، فقال عبد الرحمن: أتستسلفني وعندك بيت المال، ألا تأخذ منه ثم تردّه؟ فقال عمر: إني أتخوّف أن يصيبني قدري، فتقول أنت

[1] - تهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين المزي.

وأصحابك: اتركوا هذا لأمير المؤمنين، حتى يؤخذ من ميزاني يوم القيامة، ولكني أتسلَّفها منك لما أعلم من شُحِّك فإذا متُّ جئتَ فاستوفيتها من ميراثي»[1]. يخشى أن يموت وعليه دينٌ من بيت مال المسلمين، ويسامحه المسلمون فيه، لكنه أبدًا لا يسامح نفسه، ولا يسمح لها بما ليس لها، وحتى مع أبنائه وأصهاره، «عن محمد بن سيرين أن صهرًا لعمر بن الخطاب قَدِمَ على عمر، فعرض له أن يُعطيه من بيت المال فانتهرَه عمر وقال: «أردت أن ألقى الله ملكًا خائنًا؟». فلما كان بعد ذلك أعطاه من صلب ماله عشرة آلاف درهم»[2].

فالإمام العادل لا يسمح لا لنفسه ولا لأقربائه حتى ولو كانوا أقرب الأقربين أن يأخذوا من مال الله ما لا يحلُّ لهم؛ لأنه يدرك تمامًا عاقبة ذلك، قال عليُّ بن أبي طالب: «والله لقد رأيتُ عقيلًا[3] وقد أملق[4] حتى استماحني من بُرِّكُم

---

[1] - عيون الأخبار، ابن قتيبة.

[2] - الطبقات الكبرى، ابن سعد.

[3] - عقيل بن أبي طالب، أخاه.

[4] - أي افتقر واحتاج، من الإملاق، وهو الفقر.

صاعًا[1]، ورأيت صبيانه شُعْثَ الشعورِ غُبْرَ الألوانِ من فقرهم كأنما سُوِّدَت وجوهُهم بالعِظْلِمِ[2]، وعاودني مؤكدًا وكرَّر عليَّ القولَ مرددًا، فأصغيت إليه سمعي، فظنَّ أنى أبيعه ديني، وأتبع قياده مفارقًا طريقتي، فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضج ضجيج ذى دنف[3] من ألمها، وكاد أن يحترق من ميسمها[4]، فقلت له ثكلتك الثواكل[5] يا عقيل أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبِه، وتجرُّنى إلى نارٍ سَجَرَها جبَّارُها لغضبه، أتئِنُّ من الأذى ولا أَئِنُّ من لَظَى؟!» [6].

فالإمام العادل يعلم تمام العلم ما أعدَّه الله لمن استباح من أموال رعيته، وأخذ لنفسه أكثر مما يجدر به، بل إنه يتعفف إن قدر، «عن حارثة بن مضرب قال: قال عمر ابن الخطاب: إنِّي أنزلتُ نفسي من مال الله منزلة مال اليتيم، إن

---

[1] ـ أي من قمحكم –أيها المسلمون- مقدارًا.
[2] ـ نبات يُصبَغ به.
[3] ـ صاحب المرض الشديد الذي شارف على الموت.
[4] ـ الميسم هو الآلة التي يُكوى بها.
[5] ـ فقدك أحباؤك، والمراد هلكتَ.
[6] ـ شرح نهج البلاغة، أبو الحديد.

استغنيتُ استعففتُ، وإن افتقرتُ أكلتُ بالمعروف، قال وكيع في حديثه: فإن أيسرت قضيت». [1]

بل وأكثر من ذلك أنَّ الإمام العادل وإن كان موسرًا غنيًّا فإنَّه يتجرَّد من مظاهر الغنى واليسار، ويتخلَّى وأهلُ بيته عن آيات الزينة، ويخلي يده من الدنيا بعدما أخلى قلبه، «قال فرات بن السائب: قال عمر بن عبد العزيز لامرأته فاطمة بنت عبد الملك[2] -وكان عندها جوهر أمر لها به أبوها لم يُرَ مثله-: اختاري إما أن تردي حليك إلى بيت المال و إما أن تأذني لي في فراقك؛ فإني أكره أن أكون أنا وأنتِ وهو في بيت واحد، قالت: لا بل أختارك عليه وعلى أضعافه، فأمر به فحُمل حتى وضع في بيت مال المسلمين، فلمَّا مات عمر واستُخلف يزيد قال لفاطمة: إن شئتِ رددته إليك، قالت: لا، والله ما أطيب به نفسًا في حياته، وأرجع فيه بعد موته»[3].

[1] - الطبقات الكبرى، ابن سعد.
[2] - وكانت ابنة خليفة، وحفيدة خليفة، وزوجة خليفة، وأخت خلفاء، وقال فيها الشاعر:
بنتُ الخليفة والخليفة جَدُّها أختُ الخلائف والخليفة بعلُها.
[3] - تاريخ الخلفاء، السيوطي.

ولم يكن عمر بن عبد العزيز ليطلب ذلك من زوجته إلا بعدما بدأ بنفسه، «قال أبو بكر بن أبي سَبْرَة: لما ردَّ عمر ابن عبد العزيز المظالم قال: إنه لينبغي أن لا أبدأ بأول من نفسي. فنظر إلى ما في يديه من أرض أو متاع فخرج منه حتى نظر إلى فصٍّ خاتمٍ فقال: هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب، فخرج منه»[1].

فالإمام العادل لا يقتطع من أرزاق الناس ليحشو بها جيوبه، ولا يضع يده على أموالهم ليُزيد بها أرصدته في البنوك، ولا يستولي على أقواتهم ليملأ بها معدته، إنما الإمام العادل من يقتطع من ماله ليوسِّع على رعيته، ويتجرَّد من مظاهر الزينة والخيلاء لئلا يرى نفسه فوقهم، ولا يروا أنفسهم دونه، يعي تمامًا أنَّ ما يصيبه اليوم من مال الله ومال عامة المسلمين سيُسأل عنه ويُحاسب عليه يوم لا ينفع مالٌ ولا سلطانٌ ولا جاهٌ ولا نفوذ.

---

[1] ـ الطبقات الكبرى، ابن سعد.

الزهد

والإمام العادل زاهدٌ في الدنيا، غير متلهِّفٍ على متاعها، كريمٌ بما يملك، جوادٌ بما في يديه، «عَنْ مُوسَى بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الإِسْلاَمِ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ -قَالَ- فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لاَ يَخْشَى الْفَاقَةَ[1]»[2].

وإن الحاكم العادل ليزهد في الدنيا حتى ليكون فقيرًا مستحقًّا للزكاة، «لما قدم عمر حمص أمرهم أن يكتبوا له فقراءهم، فرجع الكتاب فإذا فيه سعيد بن عامر. قال: من سعيد بن عامر؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، أميرنا. قال: وأميركم فقير؟ قالوا: نعم. فعجب، فقال: كيف يكون أميركم فقيرًا؟ أين عطاؤه؟ أين رزقه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، لا يمسك شيئًا،

---

[1] - الفقر.

[2] - صحيح مسلم.

قال: فبكى عمر حتى عمد إلى ألف دينار فصرَّها، وبعث بها إليه، وقال: أقرءوه مني السلام، وقولوا له: بعث بها إليك أمير المؤمنين، فاستعن بها على حاجتك. قال: فجاء بها إليه الرسول، فنظر إليها فإذا هي دنانير، فجعل يسترجع[1] فقالت له امرأته: ما شأنك؟ أصيب أمير المؤمنين؟ قال: أعظم. قالت: فظهرت آية؟ قال: أعظم من ذلك. قالت: فأمر من الساعة؟ قال: بل أعظم من ذلك. قالت: فما شأنك؟ قال: الدنيا أتتني، الفتنة أتتني حتى حلت عليَّ. قالت: فاصنع فيها ما شئت. قال لها: عندك عون؟ قالت: نعم. قال: ائتني به. قال: وأتته بخمارها، فصر الدنانير فيها صررًا[2]، ثم جعلها في مخلاة، ثم بات يصلي حتى إذا أصبح ثم اعترض بها جيشًا من جنود المسلمين فأمضاها[3] كلها، فقالت له امرأته: لو كنت حبست منها شيئا تستعين به. فقال لها: سمعت رسول الله ﷺ

[1] - يقول: إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون.
[2] - أي قسَّمها أقسامًا.
[3] - أي فرَّقها.

يقول: «لو اطلعت امرأة من نساء الجنة إلى الأرض لملأت الأرض من ريح المسك»[1] فإني والله ما أختار عليهن، فسكتت»[2].

والي حمص يُنفق راتبه على الفقراء، ولا يُبقي لنفسه شيئًا، حتى إذا أعانه أمير المؤمنين بمالٍ فرَّقه في سبيل الله! أيُّ زهدٍ هذا وأيُّ إعراضٍ عن الدنيا هذا!

«عن عبد الله: أن عمر بن الخطاب، حين قدم الشام قال لأبي عبيدة: اذهب بنا إلى منزلك. قال: وما تصنع بمنزلي؟ قال: اذهب بنا إليه. قال: ما تريد إلا أن تعصر عينيك عليَّ[3]، فدخل منزله فلم ير شيئًا. فقال عمر: أين متاعك؟ فإني لا أرى إلا لِبَدًا وَشَنًّا وَصَحْفَةً[4] وأنت أمير، أعندك طعام؟ فقام أبو عبيدة إلى جَوْنَة[5] فأخذ منها كسيرات، فبكى عمر.

---

[1] - الحديث عند البخاري: «وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا».

[2] - تاريخ دمشق، ابن عساكر.

[3] - أي تبكي لرقة حالي.

[4] - اللبد هو ما يوضع تحت السرج، والشَّنُّ قربةُ الماء الصغيرة، والصحفة هي إناء الطعام.

[5] - سلَّة.

فقال له أبو عبيدة: قد قلت لك إنك ستعصر عينيك عليَّ يا أمير المؤمنين، يكفيك من الدنيا ما بلَّغك المقيل[1]، قال عمر: غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة!»[2].

ولك أن تنظر إلى من يقول تلك المقالة، إنَّه أمير المؤمنين الذي كان يأكل الخبز بالزيت، ويلبس المرقعة ذات الاثنتي عشرة رقعة!

وليس مطلوبًا من حكَّام اليوم أن يهبوا أموالهم للناس، ولا أن يعيشوا بينهم فقراء لا يجدون ما ينفقون به على أنفسهم، إنَّما المطلوب منهم أن يجعلوا غايتهم إرضاء الله، وأن يضعوا نصب أعينهم إصلاح ما تحت أيديهم وما ولوا، فلا يوجِّهون وجوههم إلا صوب وجه الله، وأن يسعوا إلى الإصلاح ما استطاعوا، مترفِّعين عن أية مكاسب زائلة، لا تُقَارَن أبدًا بما أعدَّه الله للحاكم العادل في الدار الآخرة.

[1] ـ المقيل هو موضع النوم أو زمانه، والمراد يكفيك ما أقام صلبك طول يومك.
[2] ـ الزهد، أبو داود السجستاني.

الإيثار

والإيثار هو أن يُعطي الإنسانُ الشيءَ وهو محتاجٌ إليه، والإمام العادل يؤثر على نفسه، فهو كالأب الحاني على أولاده، الذي لا يستأثر بشيءٍ دونهم، إنما يُقدِّمهم على نفسه، ويبالغُ في عطائهم، حتى ولو حرم نفسه، وكان رسول الله ﷺ نموذجًا يُحتذى في الإيثار، وتقديم الغير على النفس، «عن جابر بن عبد الله قال: إِنَّا يَوْمَ الخَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ[1] شَدِيدَةٌ، فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الخَنْدَقِ، فَقَالَ: «أَنَا نَازِلٌ». ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ[2]، وَلَبِثْنَا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لاَ نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ المِعْوَلَ فَضَرَبَ، فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ، أَوْ أَهْيَمَ[3]، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي إِلَى البَيْتِ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا[4] مَا كَانَ فِي ذَلِكَ

---

[1] ـ الأرض الصلبة.
[2] ـ من أثر الجوع.
[3] ـ أهيل أو أهيم: رملًا ينهال.
[4] ـ أي من الجوع.

صَبْرٌ، فَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ[1]، فَذَبَحَتِ العَنَاقَ، وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي البُرْمَةِ[2]، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ[3]، وَالبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ[4] قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ[5] لِي، فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلاَنِ، قَالَ: «كَمْ هُوَ؟» فَذَكَرْتُ لَهُ، قَالَ: «كَثِيرٌ طَيِّبٌ»، قَالَ: «قُلْ لَهَا: لاَ تَنْزِعِ البُرْمَةَ، وَلاَ الخُبْزَ مِنَ التَّنُّورِ[6] حَتَّى آتِيَ»، فَقَالَ: «قُومُوا»، فَقَامَ المُهَاجِرُونَ، وَالأَنْصَارُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيْحَكِ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: هَلْ سَأَلَكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: «ادْخُلُوا وَلاَ تَضَاغَطُوا[7]» فَجَعَلَ يَكْسِرُ الخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيُخَمِّرُ البُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ

---

[1] - الأنثى من ولد المعز.
[2] - القِدر.
[3] - لان واختمر.
[4] - جمع أثفية، وهي الحجارة التي تجمع وتوضع عليها القدر.
[5] - تصغير طعام؛ لبيان قلته.
[6] - الفرن.
[7] - لا تتزاحموا.

ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الخُبْزَ، وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ، قَالَ: «كُلِي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ»[1].

لم يقل في نفسه: طعامٌ قليلٌ، ولن يكفي أحدًا، ولم ينفلت من بين أصحابه ويذهب متخفِّيًا إلى بيت جابر، بل قدَّم الجميعُ على نفسه، وحرص أن ينالَ الجميعُ مما سينال منه، ولم يستأثر لنفسه بشيءٍ دونهم، صحيح أنَّ الله أظهر على يديه معجزةً بأنَّ طعامًا قليلًا كهذا أطعم جيشًا جائعًا من المهاجرين والأنصار، لكنه يضرب المثل بالفعل لا بالقول أن الإمام العادل لا يشبع وشعبه جوعى، ولا يهنأ ورعيته أشقياء، «عن عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده قال: كان عمر يصوم الدهر. قال: فكان زمان الرمادة إذا أمسى أتي بخبز قد ثُرِدَ بالزيت إلى أن نحروا يومًا من الأيام جَزُورًا[2] فأطعمها الناس. وغرفوا له طيبها فَأُتِيَ به، فإذا فِدَرٌ[3]

[1] - صحيح البخاري.
[2] - الجزور هو ما يصلح لأن يُذبح من الإبل.
[3] - قطع.

من سنام ومن كبد. فقال: أنَّى هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين من الجزور التي نحرنا اليوم. قال: بَخٍ بَخٍ[1]، بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها[2]، ارفع هذه الجَفنة[3]. هات لنا غير هذا الطعام. قال فأُتي بخبزٍ وزيت. قال فجعل يكسر بيده وَيَثْرُدُ ذلك الخبز ثم قال: ويحك يا يرفا![4] احمل هذه الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت بثمغ[5] فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام. وأحسبهم مقفرين. فضعها بين أيديهم»[6].

لا يرضى لنفسه إلا أهون العيش، حسبه لقيمات يقمن صلبه، يكتفي بالخبز والزيت، ويدفع باللحم إلى رعيته، يقرر أنَّ الوالي السيء فقط هو من يؤثر نفسه على من تحت يده، وأن الإمام العادل هو من يقدِّم مصلحة شعبه على مصلحته، وحاجة رعيته على حاجته.

[1] ـ كلمة تُقال للتعجب، وكان يقولها ساخرًا.
[2] ـ أي عظامها.
[3] ـ قصعة الطعام.
[4] ـ يرفا: حاجب عمر بن الخطاب، وويحك: كلمة تقال للترحُّم والتوجُّع.
[5] ـ موضع مال لعمر وقفه بالمدينة.
[6] ـ الطبقات الكبرى، ابن سعد.

البدء بنفسه

والإمام العادل لا يكون شغله الشاغل وضع القوانين وتوجيه الأوامر والزجر عن النواهي دون أن يكون له نصيبٌ من العمل بها، فهو لا يستثني نفسه من قانونٍ ولا يشذُّ عن قاعدةٍ ولا يتفضَّلُ بمزيِّةٍ ولا يُؤثَر بميزةٍ، بل يكون هو أولُ من يطبِّق القانون وأول من يعمل بما يأمر وينتهي عما نهى، والحاكم العاقل هو من يعي أنَّ العمل خيرٌ من ألف كلمة توجيهٍ، وأن الموقف أفضلُ من ألف مقالٍ، وقد تجلَّى أثر ذلك يوم صلح الحديبية[1] بعدما اصطلح رسول الله ﷺ مع قريش على عدة بنود كان منها أن يرجعوا عامهم هذا دون أن يحجوا، فأحزن ذلك الشرط أصحاب رسول الله ﷺ، «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا»، قَالَ[2]: فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ

[1] - سنة 6 هـ.

[2] - راوي الحديث، وهو الزُّهري عن عمر.

يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا، فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا»[1].

لما بدأ بنفسه تابعه الناس في سهولةٍ ويسر، ولَاحِظْ أنه ﷺ لم يكلمهم كلمة، دائمًا ما تنتصر المواقف على الكلمات، ودائمًا ما تفوز الأفعال على الأقوال، والإمام العادل إذا أراد إقرار أمرٍ بدأ بنفسه ونفَّذه على نفسه أولًا، وحينها لن يحتاج أن يطالب به أحدًا، وقد وضع النبي ﷺ في خطبة الوداع الربا والدم، وبدأ أول ما بدأ بنفسه ومن يليه فقال ﷺ: «قَضَى اللهُ أَنّهُ لَا رِبَا، وَإِنّ رِبَا عَبّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ مَوْضُوعٌ كُلّهُ، وَأَنّ كُلّ دَمٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيّةِ مَوْضُوعٌ

[1] - صحيح البخاري.

وَإِنَّ أَوَّلَ دِمَـائِكُمْ أَضَـعُ دَمُ ابْـنِ رَبِيعَـةَ بْـنِ الْحَـارِثِ بْـنِ عَبْـدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَ مُسْتَرْضَعًا فِي بَنِي لَيْثٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ فَهُوَ أَوَّلُ مَا أَبْدَأُ بِهِ مِنْ دِمَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ»[1].

لم يكتـفِ ﷺ بإصـدار الأوامـر وإقـرار القـرارات وتوجيـه النـواهي في كـل اتجـاه، إنَّمـا وقـف يضـرب النمـوذج والمثـل في تطبيق القـوانين على نفسه وأهله أولًا، قبـل مطالبـة النـاس بهـا، فلا تُفرَّغ لـه الطرق ليسير فيها منفردًا، ويترك النـاس يتكدَّسون منتظـرين مـرور موكـب سـيادته، ولا يتخطَّى الطـوابير ويتجـاوز الصـفوف لقضـاء حاجـةٍ مـن حوائجـه، ولا تُفصَّـل لـه قـوانين على مقاسه دون النظر إلا لمصلحته الشخصية، بل إنَّه يطبِّق القـانون علـى نفســه وأهلـه قبـل أن يطبِّقـه علـى العـوام، قـال رسـول الله ﷺ: « وَايْمُ اللهِ لَـوْ أَنَّ فَاطِمَـةَ بِنْـتَ مُحَمَّـدٍ سَـرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[2].

---

[1] - السيرة النبوية، ابن هشام.
[2] - رواه الشيخان.

إحسان اختيار الولاة

والإمـام العـادل لا يبحـث عـن الإمامـة، ولا يتحـرى الحكـم، ولا يسـأل الولايـة، فـإن أتتـه دون سـؤالٍ أعانـه الله عليها، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لاَ تَسْأَلِ الإِمَـارَةَ فَإِنَّـكَ إِنْ أُعْطِيتَهَـا عَـنْ مَسْـأَلَةٍ وُكِلْـتَ إِلَيْهَـا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا»[1]، «عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَا وَرَجُلاَنِ مِنْ بَنِي عَمِّي فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ يَا رَسُولَ اللهِ أَمِّرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلاَّكَ اللهُ ﷻ. وَقَالَ الآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ فَقَالَ: «إِنَّا وَاللهِ لاَ نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلاَ أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ»[2].

والإمـام العـادل إذا أراد توليـة أحـدٍ ولايـةً، تحـرَّى أهـل الكفاءةِ، لا أهل الثقة، فلا يوزِّع المناصب في أصحابه وأتباعه وأقاربه ورجالـه وأعضـاء حزبـه غاضًّـا بصره عـن كفـائتهم مـن

[1] - رواه الشيخان واللفظ لمسلم.

[2] - رواه مسلم.

عدمها، لـمَّا كان عمر بن الخطاب في فراش الموت بعدما طعنه من طعنه، قال لعليٍّ وعثمان وعبد الرحمن بن عوف: «فإن كنت يا عثمان في شيءٍ من أمر الناس فاتقِ الله ولا تحملنَّ بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس، وإن كنت يا علي فاتقِ الله ولا تحملنَّ بني هاشمٍ على رقابِ الناس، وإن كنت يا عبد الرحمن فاتقِ الله ولا تحملنَّ أقاربك على رقاب الناس»[1].

يحذِّرهم في لحظاته الأخيرة من تولية أهلهم وعشائرهم فوق رقاب الناس، فالولاية أمانة، لا تُسنَد إلَّا لمن يقدر على الاضطلاع بها، ولا توكَّل إلا لمن يُظنُّ فيه القيام بتبعاتها، «عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ: أَلاَ تَسْتَعْمِلُنِي؟[2] قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»[3].

---

[1] ـ فتح الباري، ابن حجر.
[2] ـ تجعلني عاملًا؛ أي واليًا.
[3] ـ رواه مسلم.

رسول الله ﷺ يرفض تولية أبي ذر؛ لأنَّ فيه ضعفًا على أمور الولاية، لم تدفعه محبته لأبي ذرٍ إلى توليته وهو لا يصلح، فالإمام العادل لا يولِّي أمور المسلمين إلا من توسَّم فيه القدرة على القيام بها خير قيام، والنهوض بها على خير وجهٍ، بل إنَّه يشترطُ شروطًا فيمن يتولَّى شيئًا من أمر المسلمين، قال عمر ابن الخطاب: «لا يصلح الوالي إلا بأربع خصال، إن نقصت واحدة لم يصلح له أمر: قوة على جمع المال من أبواب حِلِّه[1]، ووضعه في حقه، وشدة لا جبروت فيها، ولين لا وهن فيه»[2]، ثمَّ إنَّه إن وجد فيه ما يكره بادر بعزله، «استعمل عمر ابن الخطاب رجلًا من بني أسدٍ على عمل، فدخل ليُسلِّم عليه، فأتى عمر ببعض ولده فقبَّلهُ، فقال له الأسدي: أنقبِّلُ هذا يا أمير المؤمنين، فوالله ما قبَّلتُ ولدًا لي قط. فقال له عمر: فأنت والله بالناس أقل رحمةً، لا تعمل لي عملًا، فردَّ عهده»[3].

---

[1] - الحِلُّ: الحلال.

[2] - سراج الملوك، الطرطوشي.

[3] - تاريخ عمر بن الخطاب، ابن الجوزي.

والإمـام العـادل لا يـولِّي ويعـزِّل دون أسـبابٍ واضـحة، فليس لـه أن يعزِّل عـاملًا ناجحًا، إلا لسببٍ وجيه، ومنه عزل عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد وهو القائد الذي لم يُهزم في معركة، لكنه فعل ذلك خشية أن يفتتن الناس به، فكان الناس يقولـون: لـن يُهـزم جـيشٌ قائـده خالـد، فعزلـه وكتـب إلى الأمصار: «إنِّي لم أعزل خالدًا عن سَخْطَةٍ ولا خيانة، ولكنَّ الناس فُتنوا به، فخشيت أن يُوكَلُوا إليه وَيُبْتَلُوا، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع»[1].

وقد أسدى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز بعض النصائح حين ولَّاه حكم مصر، فقال: «ابسط بشرَك[2]، وألن كنفك[3]، وآثر الرفق في الأمور، فإنّه أبلغ بك، وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك فإنّه وجهك ولسانك. ولا يقفنَّ أحدٌ ببابك إلا أعلمك مكانه، لتكون أنت الذي تأذن له أو تردُّه.

[1] - تاريخ دمشق، ابن عساكر.
[2] - أي كن طليق الوجه.
[3] - أي كن لين الطباع لطيف المعشر.

وإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ بالسلام يأنسوا بك، وتثبُت في قلـوبهم محبّتـك. وإذا انتهـى إليـك مشـكلٍ فاسـتظهر عليـه بالمشاورة، فإنّها تفتح مغاليق الأمور، وإذا سخطت على أحدٍ فأخِّر عقوبته، فإنك على العقوبة بعد التوقف عنه، أقدر منك على ردّها بعد إمضائه» [1].

وليذكر كل من ولي من أمور الناس شيئًا أن البطانة التي يختارها لنفسه، والولاة الذين يوليهم أمور الناس، والوزراء الذين يستوزرهم، والمستشارين الذين يعمل برأيهم، إمّا أن يحسن اختيارهم فيحسنوا معاونته على أمره، وإمّا أن يسيء اختيارهم فيسيئوا وجهه أمام الله، «عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا اسْتُخْلِفَ خَلِيفَةٌ إِلَّا لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ [2] تَأْمُرُهُ بِالخَيْرِ وَتَحُضُّهُ [3] عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ» [4].

---

[1] - الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ابن الطقطقي.
[2] - بطانة الرجل: خاصته وأهل مشورته.
[3] - تحثه وتشجعه.
[4] - رواه البخاري.

محاسبة الولاة

والإمام العادل إن كان يدرك أنَّه مسئولٌ عن رعيته، فإنَّ إدراكه مسئوليته عن ولاته أشدُّ وأعظم؛ ذلك لأنَّ ولاته هم محض اختياره، وهو من انتقاهم واصطفاهم وجعلهم على رقاب الناس، «رُوي أن عمر بن الخطاب كتب إِلَى أبي مُوسَى الأشعري: «أمَّا بعد، فَإِن أسعد الرُّعَاة عِنْد الله من سعدت بِهِ رَعيته، وَإِن أشقى الرُّعَاة عِنْد الله من شقيت بِهِ رَعيته، وَإِيَّاك أَن ترتع[1] فترتع عمالك، فَيكون مثلك عِنْد الله مثل بَهِيمَة نظرت إِلَى خضرَة من الأَرْض فرتعت فِيهَا تبتغي فِي ذَلِك السّمنَ[2] وَإِنَّمَا حتفها[3] فِي سمنها» وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِك لِأَن الْوَالِي مَأْخُوذ بظُلْم عماله وظلم جَمِيع حَوَاشِيه فَكل ذَلِك فِي جريدته وينسب اليه»[4].

---

[1] - تلهو وتنعم.
[2] - كثرة اللحم والشحم، والمراد الغنى والنعيم واليسار.
[3] - هلاكها.
[4] - فضائح الباطنية، أبو حامد الغزالي.

والإمام العادل يضع شرطًا لولاته؛ وهو عدم التربُّح من المنصب الذي يلونه، «اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنْ بَنِي أَسْدٍ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الأُتَبِيَّةِ عَلَى صَدَقَةٍ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ – قَالَ سُفْيَانُ أَيْضًا فَصَعِدَ المِنْبَرَ – فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «مَا بَالُ العَامِلِ نَبْعَثُهُ فَيَأْتِي يَقُولُ: هَذَا لَكَ وَهَذَا لِي، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَنْظُرُ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَأْتِي بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ[1] »، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إِبْطَيْهِ: «أَلا هَلْ بَلَّغْتُ» ثَلاثًا»[2].

يرفض النبي ﷺ رفضًا قاطعًا أن يتربَّح العامل في العمل العام من منصبه تحت أي مسمًى، فالهدية رشوة، والعطية رشوة، والمنحة رشوة، والإكرامية رشوة، ويضع النبي ﷺ حدًّا

[1] - الرغاء: صوت البعير، الخوار: صوت البقرة، اليَعْرُ : الشَّاةُ أَو الجَدْيُ أَو العَنَاق ، يُشَدُّ ويُربطُ عند زُبية الأَسد أَو الذئب ونحوهما، ويُغَطَّى رأْسُه ، فإِذا سمع السَّبُع صوتَه جاءَ في طلبه فوقع في الزُّبيةِ فأُخِذ، والزبية هي حفرة صغيرة تُصنع لصيد الأسد.
[2] - رواه البخاري.

فاصلًا بين الهدية والرشوة، وهو أنَّها لم تكن لتمنح له وهو في بيت أبيه وأمه، وخارج إطار العمل العام، ومجردٌ من المنصب الذي يشغله.

والإمام العادل حريصٌ على متابعة ولاته، وسؤال رعيتهم عنهم، فعن خالد بن معدان قال: «استعمل علينا عمر ابن الخطاب بحمص سعيد بن عامر بن جذيم الجمحي، فلما قدم عمر بن الخطاب حمص، قال: يا أهل حمص كيف وجدتم عاملكم؟ فشكوه إليه، وكان يقال لأهل حمص الكويفة الصغرى لشكايتهم العمال، قالوا: نشكو أربعًا؛ لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار، قال: أعظم بها! قال: وماذا؟ قالوا: لا يجيب أحدًا بليلٍ، قال: وعظيمة! قال: وماذا؟ قالوا: وله يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا، قال: عظيمة! قال: وماذا؟ قالوا: يغنظ الغنظة بين الأيام؛ يعني تأخذه موتة. قال: فجمع عمر بينهم وبينه، وقال: اللهم لا تُفِل رأيي فيه اليوم[1]، ما تشكون

[1] - أي: اللهم لا تُخطئ رأيي فيه اليوم. فال رأيه، ويفيل يعني يخطئ.

منه؟ قالوا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار. قال: والله إن كنت لأكره ذكره، ليس لأهلي خادم فأعجن عجيني ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزي ثم أتوضأ ثم أخرج إليهم. فقال: ما تشكون منه؟ قالوا: لا يجيب أحدًا بليل. قال: ما تقول؟ (قال:) إن كنت لأكره ذكره، إني جعلت النهار لهم وجعلت الليل لله ﷻ، قال: وما تشكون؟ قالوا: إن له يومًا في الشهر لا يخرج إلينا فيه. قال: ما تقول؟ قال: ليس لي خادم يغسل ثيابي، ولا لي ثيابٌ أبدِّلها، فأجلس حتى تجف ثم أدلِّكها، ثم أخرج إليهم من آخر النهار. قال: ما تشكون منه؟ قالوا: يغنظ الغنظة بين الأيام، قال: ما تقول؟ قال: شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة وقد بَضَعَت قريش لحمه[1] ثم حملوه على جذعة[2]، فقالوا: أتحب أن محمدًا مكانك؟ فقال: والله ما أحب أني في أهلي وولدي وأن محمدًا ﷺ بشوكة[3]، ثم

[1] - أي قطَّعت لحمه.
[2] - ساق النخلة ونحوه.
[3] - أي يُشاك بشوكةٍ.

نادى: يا محمد، فما ذكرت ذلك اليوم وتركي نصرته في تلك الحال وأنا مشرك لا أومن بالله العظيم إلا ظننت أن الله ﷻ لا يغفر لي بذلك الذنب أبدًا، قال: فتصيبني تلك الغنظة، فقال عمر: الحمد لله الذي لم يُفِل فراستي»[1].

عقد عمر رضي الله عنه لعامله محاكمة عادلة، أمام رعيته الذين اتهموه، لم يكتفِ برأيه فيه، بل منحه حقَّ الردَّ في شفافيةٍ غير مسبوقة، والأهم من ذلك أنه اهتم برأي رعيته فيه، وهذا أمرٌ غايةٌ في الأهمية؛ ذلك لأن حال الولاية لن ينصلح إلى بصلاح العلاقة بين الحاكم والمحكومين.

والإمام العادل يحاسب نفسه قبل أن يحاسب ولاته، ويتقي الله فيما وليه من أمور الناس قبل أن يطالب عماله، «عن علي رضي الله عنه قال: رأيت عمر بن الخطّاب رضي الله عنه على قتب يعدو[2]، فقلت: يا أمير المؤمنين أين تذهب؟ قال: بعير نَدَّ[3]

---

[1] ـ حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني.
[2] ـ يجري، والقتب هو الرحل الصغير على قدر سنام الجمل.
[3] ـ نفر وشرد.

من إبل الصدقة أطلبه، فقلت: لقد أذللت الخلفاء بعدك، فقال: يا أبا الحسن لا تلمني فوالذي بعث محمدًا بالنبوة لو أن عَنَاقاً[1] أُخذت بشاطيء الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة»[2]، وإمامٌ كهذا لو أمر لأُطيع، ولو نهى لانتُهي، ولو حاسب لأذعن المحاسَبون؛ لأنهم يرون بأعينهم أنَّه يبدأ بنفسه، ويحاسبها حسابًا شديدًا عسيرًا لا لين فيه ولا تساهل ولا تخاذل، فإنَّ العمل في ميدان العمل العام، والاضطلاع بحكم الناس وسياستهم، وولاية أمور العوام وشئونهم، أمرٌ تتحتَّم فيه دقةُ المحاسبة، وحدة المراقبة، واستقصاء أحوال الولاة والعمال، وسؤال الناس والاعتداد برأيهم، والحرص على عدم انتفاع الولاة من مناصبهم، وعدم استحلالهم ما لا يحل لهم، وعدم التقصير في أعمالهم، واجتهادهم في رفع المظالم وإقرار العدل وردِّ الحقوق إلى أصحابها.

---

[1] - العناق الأنثى من أولاد الماعز والغنم حتى تتم حولًا.
[2] - تاريخ عمر بن الخطاب، ابن الجوزي.

التمسُّك بالحق

والإمام العادل يعرف الحقَّ ويتبعه، ويتمسَّك به ولا يفرِّط فيه مهما كانت العقبات التي تحول بينه وبينه، أو الإغراءات التي تزيِّن له الباطل، فهو لا يحيد عن الحق قيد أنملة، ولا يزيغ إلى الباطل طرفة عينٍ، ولا ينساق خلف دعاوى من يحبب إليه الباطل ويجمِّله في عينيه، وقد أمَّر رسول الله ﷺ أسامة بن زيد علي جيشٍ من المهاجرين الأولين والأنصار للقاء الروم، وكان أسامة يومها لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، « فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام عَلَى المهاجرين الأولين! فغضب رَسُول اللهِ ﷺ غضبًا شديدًا، فخرج وقد عصب عَلَى رأسه عصابة[1] وعليه قطيفة. فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «أما بعد أيها النّاس فما مقالة بلغتني عَن بعضكم فِي تأميري أسامة. ولئن طعنتم فِي إمارتي أسامة لقد طعنتم في

[1] - أي ربط رأسه من المرض، وكان ذلك قبل وفاته ﷺ بيومٍ؛ إذ كان ذلك يوم الأحد، وتوفي رسول الله ﷺ يوم الإثنين.

إمارتي أَبَاهُ من قبله! وايم الله إن كَانَ للإمارة لخليقًا[1] وإن ابنه من بعده لخليق لِلإِمَارَةِ وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ. وإنهما لمخيَّلان لكل خير[2]. واستوصوا بِهِ خيرًا فإنه من خياركم!»[3].

رأى الحقَّ في تولية أسامة قائدًا رغم صغر سنِّه، وعارضه المعارضون لكنه أبى إلا أن يقرَّ الحقَّ، وهذا لا يعني الاستبداد والانفراد بالرأي وتسفيه المعارضين وإخراس أصواتهم، إنما هذا رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، ولا يقول عن رأيه، إن هو إلا وحيٌ يوحى.

لكنَّ الأمر لم يتوقف عند هذا الحدِّ، فقد تُوفي رسول الله ﷺ في اليوم التالي، وتولَّى أبو بكر الخلافة، فطالبه المعارضون بتغيير القائد، بل إن بعضهم وسَّط عمر ابن الخطاب لإقناع الخليفة بذلك، «قال: فإنَّ الأنصار أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلًا أقدم سنًّا من

[1] - جديرًا ومستحقًا.
[2] - مستحقان لكل خير.
[3] - الطبقات الكبرى، ابن سعد.

أسامة، فوثب أبو بكر وكان جالسًا، فأخذ بلحية عمر وقال ثكلتك أمُّك وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه»[1].

كان الخليفة حاسمًا حيال أمرٍ أمر به رسول الله ﷺ، وكيف يكون أوَّل أمرٍ له إذا خلفه أن يخالفه، كيف يخالف الحقَّ ويُلغي أمرًا أمره رسول الله ﷺ، فخرج في الناس يعلنها صريحةً: «وقال: والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ، ولو أن الطير تخطفنا، والسباع من حول المدينة ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزنَّ جيش أسامة»[2].

لم يسمع لمن حاول تثبيط همته، وتمييع عزيمته، ولم يكن أحدٌ ليثنيه عن المضي على عهد رسول الله ﷺ، فهو لايرى نفسه إلى متابعًا له على المسير، مهتديًا به إلى ذات المصير، لا يألو جهدًا في مواصلة ما بدأه ﷺ، وتحقيق ما رآه ﷺ.

---

[1] - تاريخ دمشق، ابن عساكر.
[2] - البداية والنهاية، ابن كثير.

وعلى الدرب نفسه كان عهده دومًا، مقيمًا على الحق ولو خالفه الناس، «قدم على أبي بكر ﷺ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس في رجال من أشراف العرب، فدخلوا على المهاجرين والأنصار، وقالوا: إنه قد ارتد عامةُ مَن وراءنا وليس في أنفسهم أن يؤدوا إليكم ما كانوا يؤدونه إلى الرسولﷺ فإن تجعلوا لنا جعلًا نرجع فنكفيكم مَن وراءنا، فدخل المهاجرون والأنصار على أبي بكر فعرضوا عليه الذي عرضوا عليهم، وقالوا: نرى أن تطعم الأقرع وعيينة طعمة يرضيان بها ويكفيانك مَن وراءهما حتى يرجع إليك أسامة وجيشه[1] ويشتد أمرك، فإننا اليوم قليلٌ في كثير، ولا طاقةَ لنا بقتال العرب. قال أبو بكر هل ترون غير ذلك؟ قالوا: لا. قال: إنكم قد علمتم أنه كان من عهد رسول الله ﷺ إليكم بالمشورة فيما لم يمضِ فيه أمر من نبيكم ولا نزل به الكتاب عليكم وإن الله لم يجمعكم على ضلالةٍ وإني سأشير عليكم وإنما أنا رجل منكم،

[1] - وكان أسامة بن زيد قد خرج في جيشٍ لغزو الروم.

تنظرون فيما أشرته عليكم وفيما أشرتم به فتجتمعون على أرشد ذلك فإن الله يوفقكم، أما أنا فأرى أن نشد إلى عدونا، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وألا تُرضوا على الإسلام أحـدًا، وأن تتأسـوا برسـول الله ﷺ، فنجاهـد عـدوه كما جاهدهم، والله لو منعوني عقالًا لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه من أهله وأدفعه إلى مستحقه، فأتمروا يرشدكم الله فهذا رأيي. فقالوا لأبي بكر لما سمعوا رأيه أنت أفضلنا رأيًا ورأينا لرأيك تبع[1]».

وليس من باب الثبات على الحقّ والتمسُّك به إهمال المعارضين، بل إن الأولى إقناعهم، والتبيين لهم، فإن أبوا إلَّا الركون إلى الباطل اضطلع برأيه غيرَ آبهٍ بهم ولا عابئ، وولَّى وجهه شطر الحقِّ لا يبتغي غير وجه الله، ولا يرتجي إلَّا رضاه، فإن رأى الحقَّ حقًّا اتبعه، وما حاد عنه ولا انحرف، وإن رأى الباطل باطلًا تجنبه، ومال عنه وانصرف.

[1] - تاريخ الخميس، الدياربكري.

العِزّة مع المعتدين

والإمام العادل عزيزٌ على الكافرين، لا يخضع لهم ولا يلين، ولا يسمح لهم بالتجاوز في حقِّه ولا حقوق رعيته، ولا يقبل إهانة أحدٍ من شعبه، ويضرب بيدٍ من حديدٍ كلَّ من تُسوِّلُ له نفسُه التجرُّؤ على حرمات المسلمين؛ ليكون عبرةً لغيره، وزاجرًا له، «بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي الى ملك بصرى بكتابه، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فقال: أين تريد؟ قال: الشام. قال: لعلك من رسل محمد. قال: نعم، أنا رسول رسول الله ﷺ فأمر به فأوثق رباطًا ثم قدَّمه فضرب عنقه صبرًا[1] ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره وبلغ رسول الله ﷺ الخبر فاشتد عليه وندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث بن عمير ومن قتله فأسرعوا فكان ذلك سبب خروجهم الى غزوة مؤتة»[2].

---

[1] ـ قتله صبرًا؛ أي حبسه قبل قتله، فلم يُقتل في معركةٍ، ولم يُقتل خيانةً ولا غدرًا.

[2] ـ الطبقات الكبرى، ابن سعد.

أعلن رسول الله ﷺ الحرب على الروم، رغم قوة الروم وقتئذٍ؛ ثأرًا لدماء رسوله، وسيَّر جيشًا كاملًا إلى الشام انتقامًا لمقتل أحد أفراد رعيته دون ذنبٍ مرتكَب، وعلى هذا كان خلفاء رسول الله ﷺ وتابعيه، «لما خرج ملك الروم، وفعل في بلاد الإسلام ما فعل، بلغ الخبر إلى المعتصم، فلما بلغه ذلك استعظمه، وكبر لديه، وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت، وهي أسيرة في أيدي الروم: وامعتصماه! فأجابها وهو جالس على سريره: لبيك لبيك! ونهض من ساعته، وصاح في قصره: النفير النفير، ثم ركب دابته»[1]. ثار الخليفة المعتصم بالله[2] لصرخة امرأة مسلمة، وقام في جيشٍ قوامه خمسمائة ألف جندي، وكانت نتيجة ذلك فتح عمورية.

والإمام العادل لا يقبل الدنية من أعدائه، ولا يسمح لهم بانتقاصه حقًّا ولا منعه واجبًا مستحقًّا، ومن ذلك نقض

---

[1] ـ الكامل في التاريخ، ابن الأثير.
[2] ـ ثامن الخلفاء العباسيين، وهو ابن هارون الرشيد.

نقفور الأول عهد الملكة السابقة له إيريني، والذي كان يقضي بدفع الجزية لخليفة المسلمين هارون الرشيد، «فكتب نقفور إلى الرشيد: «من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق[1]، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا[2] بحمل أمثاله إليها، وذلك من ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد إلي ما حملته إليك من الأموال وافتدِ نفسك به، وإلا فالسيف بيننا وبينك». فلما قرأ هارون الرشيد كتابه أخذه الغضب الشديد حتى لم يتمكن أحدٌ أن ينظر إليه، ولا يستطيع مخاطبته، وأشفق عليه جلساؤه خوفًا منه، ثم استدعى بدواة وكتب على ظهر الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا بن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما

---

[1] - الرُّخ والبيدق هي قطع في لعبة الشطرنج، ويقصد أنها خضعت لك واستسلمت بدفعها الجزية.

[2] - جديرًا.

تسمعه والسلام». ثم شخص من فوره وسار حتى نزل بباب هرقلة ففتحها واصطفى ابنة ملكها، وغنم من الأموال شيئًا كثيرًا، وخرب وأحرق، فطلب نقفور منه الموادعة على خراج يؤديه إليه في كل سنة، فأجابه الرشيد إلى ذلك»[1].

أيُّ عــزةٍ تلــك في مقالــه وموقفــه، في ردِّه وتحريكــه للجيوش، لم يلاين ولم يهادن ولم يخضع، مادام الحقُّ في صفِّه فلا خضوع ولا هوادة، وتلك سمات الحاكم الرشيد والإمام العادل، يعرف كيف يوقف أعدائه عند حدودهم، ولا يستقوي بهم على المسلمين، ولا يستعين بهم على إخوة دينه وبني عمومته، حتى وإن وقع بينهم خلافٌ، وليس ثمة خلافٌ عرفه التاريخ الإسلامي كالذي وقع بين علي ومعاوية، «فلما كان من أمره وأمر أمير المؤمنين علي ما كان، لم يقع في تلك الأيام فتح بالكلية، لا على يديه ولا على يدي علي، وطمع في معاوية ملك الروم بعد أن كان قد أخشاه وأذله، وقهر

---

[1] ـ البداية والنهاية، ابن كثير.

جنده ودحاهم، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علي تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة وطمع فيه، فكتب معاوية إليه: «والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين لاصطلحن أنا وابن عمي عليك ولأخرجنك من جميع بلادك، ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت». فعند ذلك خاف ملك الروم وانكفَّ، وبعث يطلب الهدنة»[1].

يدرك الإمام العادل أنه وإن وقع بينه وبين أخيه خلافٌ فإنه يبقى أخاه وابن عمه، ولا يسمح لداعي الشرِّ أن يدخل بينهما، ولا أن يستغلَّ انشغالهما بخلافهما فيتطاول على أحدهما، ولا يتنافى هذا إطلاقًا مع مسالمة الآخرين، لكن بشرط أن يجنحوا للسلم، أمَّا ادِّعاء السَّلام مع دعاة الحرب، فهذا لا يعدو أن يكون ضعفًا وخنوعًا وخضوعًا لم يدعُ الإسلامُ إليه ولم يقبله يومًا، والإمام العادل يدرك أنَّه ظل الله في الأرض، ويتحتَّم عليه أن يُرِيَ أعداءه أن العزَّة لله ولأوليائه.

---

[1] ـ البداية والنهاية، ابن كثير.

مراعاة حقوق الأعداء

والإمام العادل يؤثر السلام مع المسالمين، ويجنح للسَّلْم إن جنحوا له، ولا يقدِّم الاعتداء، ولا يمدُّ يدَ العدوان، يعرف للآخرين حقوقهم، فلا يعادي المخالفين، ولا يستخدم معهم القوة المفرطة، ولا يتباهى بعضلاته عليهم، ولا يعمل السيف في رقابهم، ولا السوط في ظهورهم، إنما يسلك معهم كل مسلكٍ للسلام، داعيًا إليه بالفعل قبل القول، وبالمواقف لا الشعارات، «عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ اغْزُوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تُمَثِّلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا»[1].

حتى في الغزوات والحرب التي جُعلت لسفك الدماء، يأمر أعدل الأئمة أصحابه أن يقتصدوا قدر المستطاع في هدر الدم وإراقته، وأن يحسنوا إلى أعدائهم، فلا يغدروا بهم، ولا

[1] - رواه أبو داود وصححه الألباني.

يعبثوا بجثث من مات منهم، ولا يتعرضوا لذريتهم بسوء، وعلى هذا النهج خلفه خلفاؤه الراشدين المهديين؛ إذ أوصى أبو بكر يزيد بن معاوية عند خروجه لغزو الشام: «..وَلاَ تَقْتُلُوا كَبِيرًا هَرِمًا وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ وَلِيدًا وَلاَ تُخَرِّبُوا عُمْرَانًا وَلاَ تَقَطَّعُوا شَجَرَةً إِلاَّ لِنَفْعٍ وَلاَ تَعْقِرَنَّ بَهِيمَةً إِلاَّ لِنَفْعٍ وَلاَ تُحْرِقَنَّ نَحْلًا وَلاَ تُغْرِقَنَّهَ وَلاَ تَغْدِرْ..»[1] .

فالإفساد في الأرض ليس غاية تُراد، حتى في الحرب ومع الأعداء، إنَّما الأصل هو الإصلاح وإقرار السلام، الأمر الذي يتجلَّى بوضوح شديد في العهدة العمرية لنصارى بيت المقدس عندما فُتحت القدس، «بسم اللَّه الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد اللَّه عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملَّتها، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم، ولا

---

[1] - رواه البيهقي في سننه الكبرى .

من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارُّ أحدٌ منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمنٌ على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بِيَعهم[1] وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد اللَّه وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد،

---

[1] ـ كنائسهم، والمفرد: بِيعة.

وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان وكُتب وحُضر سنة خمس عشرة»[1].

والإمام العادل لا يأخذ الحق غدرًا، ولا يقبل به خيانةً، «لما استخلف عُمَر بْن عَبْد الْعَزِيزِ وفد عَلَيْهِ قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين عَلَى غدر فكتب عُمَر إِلَى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيًا ينظر فيما ذكروا فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا فنصب لهم جميع بن حاضر الباجي فحكم بإخراج المسلمين عَلَى أن ينابذوهم عَلَى سواء[2]، فكره أهل مدينة سمرقند الحرب وأقروا المسلمين فأقاموا بَيْنَ أظهرهم[3]»، وهذه قصة أعجب من الخيال، ولم تُرَ في أمةٍ من الأمم، فأيُّ إمامٍ هذا، وأيُّ عدلٍ ذلك الذي يقضي لأعدائه على أوليائه، وينصفهم عليهم ولا ينتقصهم حقًّا من حقوقهم مهما كلَّف الأمر!

---

[1] - تاريخ الرسل والملوك، الطبري.

[2] - أي يحاربوهم من جديدٍ، دون غدرٍ أو خيانة.

[3] - فتوح البلدان، البلاذري.

التعلُّم من الآخرين

والحاكم العادل ينتفعُ بما عند الآخرين من علمٍ ومعرفةٍ، حتى وإن كانوا أعداءً، فلا مانع على الإطلاق من تطبيق تجربة علمية أثبتت نجاحها عند أمةٍ أخرى، ولا بأس من استخدام موارد بشرية من أجناس أو أديان مختلفة، «عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَاسْتَأْجَرَ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ، ثُمَّ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا - الخِرِّيتُ: المَاهِرُ بِالهِدَايَةِ - قَدْ غَمَسَ يَمِينَ حِلْفٍ فِي آلِ العَاصِ بْنِ وَائِلٍ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاَثِ لَيَالٍ، فَأَتَاهُمَا بِرَاحِلَتَيْهِمَا صَبِيحَةَ لَيَالٍ ثَلاَثٍ، فَارْتَحَلاَ وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، وَالدَّلِيلُ الدِّيلِيُّ، فَأَخَذَ بِهِمْ أَسْفَلَ مَكَّةَ وَهُوَ طَرِيقُ السَّاحِلِ[1]»، أمَّا الرجل فهو عبد الله ابن أريقط، وكان مشركًا، لكنه كان ماهرًا بالطرق، عارفًا

[1] - صحيح البخاري.

بالدروب؛ لذلك استعمله رسول الله ﷺ، ولا بأس في ذلك مادام لن يُفسد الدين، ولن يجرح العقيدة.

وقد أفاد عمر بن الخطاب من الفرس في نظام الدواوين، «وأوّل من وضع الديوان في الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه واختلف الناس في سبب وضعه له، فقال قوم: سببه أنَّ أبا هريرة قدِمَ عليه بمال من البحرين، فقال له عمر: ماذا جئت به؟ فقال: خمسمائة ألف درهم، فاستكثره عمر فقال له: أتدري ما تقول؟ قال: نعم، مائة ألفٍ خمس مرات، فقال عمر: أطيِّبٌ هو؟ فقال: لا أدري، فصعد عمر المنبر، فحمد الله تعالى وأثني عليه، ثم قال: أيها الناس، قد جاءنا مالٌ كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلًا، وإن شئتم عددنا لكم عدًّا، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت الأعاجم يدونون ديوانًا لهم، فدوّن أنت لنا ديوانًا. وقال آخرون: بل سببه أن عمر بعث بعثًا، وكان عنده الهرمز، فقال لعمر: هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال، فإن تخلَّف منهم رجل وآجل بمكانيه،

فمن أين يعلم صاحبك به، فأثبت لهم ديوانًا، فسأله عن الديوان حتى فسّره لهم»[1].

فالإمام العادل لا يتمنَّع عن الإفادة مِن علوم مَن كانوا على غير ملَّته، ومن غير دولته، بل إنَّ مسئوليته تلزمه أن يتعلَّم مِن كل مَن كان له سبقٌ في أي مجالٍ مما ينفع رعيته، وألا يحرم شعبه أي جديدٍ في كافة فروع العلم والمعرفة، فإن عجز عن الابتكار والاختراع، عمد إلى التقليد والاقتباس، فلا يدع لأحدٍ مزية على شعبه، ولا يترك أمته في ذيل الأمم، تحت أية دعوى كانت، ثمَّ إنه إذا عمد إلى الاقتباس من علوم الآخرين ومعارفهم، نظر فيها أولًا فأخذ ما يستحق منها، وما يتلاءم ودينه، وما يتناسب وعادات مجتمعه وتقاليده وأعرافه، ونقَّح منها ما يحتاج تنقيحًا، وصحَّح منها ما يحتاج تصحيحًا، وزاد عليها وأضاف، ولم يكتفِ بالنقل دون إعمال العقل، ولم يقنع بالتقليد دون الابتكار والتجديد.

---

[1] ـ الأحكام السلطانية، الماوردي.

تأليف القلوب

والإمام العادل يعي تمامًا أن تأليف القلوب حوله هو أول خطوةٍ لبناء دولة عظيمة، وتأسيس حضارة قويمة، ولعل رسول الله ﷺ قد بدأ بإرساء مبادئ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار إيذانًا بوضع اللبنة الأولى في صرح تلك الأمة المجتباة، وقد جعل الله سهمًا من أسهم الزكاة لتأليف القلوب؛ وهم قومٌ يُرجى إسلامهم، فيُعطوا حتى يتمكَّن الإيمان من قلوبهم.

والإمام العادل يعرف مفاتيح القلوب، ويُدرك ما يصلح لقلبٍ ولا يصلح لغيره، فيتألف بعضهم بالعطايا وبعضهم بالوجاهة وبعضهم بالمكانة منه، فقد أدرك رسول الله ﷺ أنَّ أبا سفيان بن حرب رجلٌ ينزع إلى الوجاهة، ويحبُّ السيادة، فتألفه النبي ﷺ من هذه الجهة، «عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ جَاءَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بِأَبِي سُفْيَانَ ابْنِ حَرْبٍ فَأَسْلَمَ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ

أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ هَذَا الْفَخْرَ فَلَوْ جَعَلْتَ لَهُ شَيْئًا. قَالَ: «نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ»[1]، موقفٌ بسيطٌ كسب رسول الله ﷺ به قلب أبي سفيان، فماذا يغني دار أبي سفيان عن آلاف الناس، غير أنه ﷺ كان يدرك أنَّ هذا الموقف سيترك عظيم الأثر في قلب أبي سفيان، وقد كان.

وإن كان بعض الناس يتألفهم الفخر، فإن بعضهم إلى المال ينزع، وبه يرضى، ومن هؤلاء أبو سفيان بن حرب، والأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن ، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، الذي قال: «وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ»[2]، استطاع رسول الله ﷺ أن يدخل قلب صفوان، ومن معه، لما أدرك مفاتيح قلوبهم.

---

[1] - رواه أبو داود في سننه، وحسنه الألباني.
[2] - صحيح مسلم.

ثمَّة قلوب أخرى لا تأبه للمال، ولا تُعنى بالفخر، لا تنشغل بالمباهاة، ولا تبالي بمتاع الدنيا، إنَّما يستعبدها الإحسان، وتستميلها المودة، وهؤلاء لم يغفلهم رسول الله ﷺ، «عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ، قَالَ: لَمَّا أَفَاءَ[1] اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي المُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ يُعْطِ الأَنْصَارَ شَيْئًا، فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا[2]؛ إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟» كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ[3]، قَالَ: «مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ؟» قَالَ: كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: «لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ: جِئْتَنَا كَذَا وَكَذَا، أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ، لَوْلاَ الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ،

---

[1] - الفيء هو الغنائم التي يصيبها الجيش دون قتال؛ فيفرُّ الأعداء ويتركونها.
[2] - حزنوا.
[3] - أكرم، وأكثر فضلًا.

وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الأَنْصَارُ شِعَارٌ[1] وَالنَّاسُ دِثَارٌ[2]، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً[3]، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الحَوْضِ»[4].

وأوضح النبي ﷺ منهجه في التوزيع: «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: «إِنَّ قُرَيْشًا حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ[5]، وَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَجْبُرَهُمْ[6] وَأَتَأَلَّفَهُمْ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى بُيُوتِكُمْ»[7].

عرف لهؤلاء وهؤلاء ما يصلحهم ما يصلح لهم، فأداه لهم فكسب قلوبهم جميعًا ﷺ.

---

[1] - الثوب الذي يلي البدن.

[2] - الثوب الذي يكون فوق الشعار، والمراد أنتم - معشر الأنصار- أقرب إليَّ من الناس جميعًا.

[3] - والأثرة هي الانفراد بالشيء دون مستحقيه، فيُمنع صاحب الحق، ويستأثر من بيده السلطة أو الولاية أو نحو ذلك بهذا المال.

[4] - رواه البخاري.

[5] - أما قوله حديث عهدٍ بمصيبة؛ أي أصابتهم قريبًا، وأما المصيبةُ فهي الفتح والقتل.

[6] - أصلح نفوسهم وأحوالهم.

[7] - صحيح البخاري.

الشعور بالناس ورحمتهم

والإمـام العـادل عـارفٌ بشـعبِّه، متَّصـلٌ بهـم، متعـايشٌ معهـم، يشـعر بـأتراحهم قبـل أفـراحهم، ويشـاركهم معانـاتهم، ويخفف عنهم آلامهم، يعتني برعيته فردًا فردًا، ويقدِّرهم واحدًا واحدًا، لا يقلِّل من مشكلة أحدهم، حتى الطفل الصغير، «عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلَيْنَا وَلِي أَخٌ صَغِيرٌ يُكْنَى أَبَا عُمَيْرٍ وَكَانَ لَهُ نُغَرٌ[1] يَلْعَبُ بِهِ فَمَاتَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَرَآهُ حَزِينًا فَقَالَ: «مَا شَأْنُهُ؟». قَالُوا مَاتَ نُغَرُهُ فَقَالَ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟»[2].

الإمـام العـادل يجعـل لكـل فـردٍ مـن رعيتـه نصـيبًا مـن اهتمامـه، حـتى الطفـل الصـغير وهـو يلهـو بعصـفوره، وحـتى الطفل الصغير وهو يبكي على ذراع أمه، ولو كان في عباداته، فقد كان ﷺ لا يطيل صلاته؛ تخفيفًا على من خلفه، ورحمةً

---

[1] - طائر يشبه العصفور أحمر المنقار.

[2] - رواه أبو داود وصححه الألباني.

بهم، «عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلاَةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ»[1].

يخفِّف صلاته، وصلاة كل من خلفه رحمةً بقلب أمٍّ واحدةٍ لبكاء صغيرها! ما أرحمه ﷺ!

والإمام العادل يهتم برعيته كبارًا وصغارًا، رجالًا ونساءً، حتى وإن بدوا غير ذي قدرٍ في عيون الناس، إلَّا أنَّ الإمام العادل يعرف لهم قدرهم «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ أَسْوَدَ؛ رَجُلًا أَوِ امْرَأَةً، كَانَ يَكُونُ فِي المَسْجِدِ يَقُمُّ[2] المَسْجِدَ، فَمَاتَ وَلَمْ يَعْلَمُ النَّبِيُّ ﷺ بِمَوْتِهِ، فَذَكَرَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «مَا فَعَلَ ذَلِكَ الإِنْسَانُ؟» قَالُوا: مَاتَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «أَفَلاَ آذَنْتُمُونِي[3]؟» فَقَالُوا: إِنَّهُ كَانَ كَذَا وَكَذَا – قِصَّتُهُ – قَالَ: فَحَقَرُوا شَأْنَهُ، قَالَ: «فَدُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ» فَأَتَى قَبْرَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ»[4].

---

[1] - رواه البخاري.
[2] - يكنس.
[3] - أخبرتموني.
[4] - صحيح البخاري.

اللين والحلم

والإمام العادل هيِّن ليِّن، لا تأخذه العزَّةُ بالإثم، ولا يغضب للدنيا، ولا يقدر المناصب فوق قدرها، «بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل من مشارف الشام في بلي[1] وعبد الله ومن يليهم من قضاعة. قال عروة ابن الزبير: وبنو بلي أخوال العاص بن وائل، فلما صار إلى هناك خاف من كثرة عدوه فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمده[2]، فندب رسول الله ﷺ المهاجرين الأولين فانتدب أبو بكر وعمر في جماعة من سراة المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين، وأمَّر عليهم رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح -قال عروة: وعمرو يومئذٍ في سعد الله وتلك الناحية من قضاعة-، قال موسى ابن عقبة: لما قدموا على عمرو قال: أنا أميركم، وأنا أرسلت إلى رسول الله ﷺ أستمده بكم، فقال المهاجرون: بل أنت

---

[1] - فرع من قبيلة قضاعة.
[2] - يطلب مددًا.

أمير أصحابك وأبو عبيدة أمير المهاجرين، فقال عمرو: إنَّما أنتم مددٌ أُمْدِدْتُهُ، فلما رأى ذلك أبو عبيدة -وكان رجلًا حسن الخلق، لين الشيمة[1]، سعى لأمر رسول الله ﷺ عليه وعهده- قال: تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إليَّ رسول الله ﷺ أن قال: «إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا»، وإنك إن عصيتني لأطيعنك. فسلم أبو عبيدة الامارة لعمرو ابن العاص»[2].

لم يغضب، ولم يَثُر، ولم يتمسَّك بالقيادة رغم أحقيته وهو من العشرة الأوائل دخولًا في الإسلام[3]، ومن العشرة المبشرين بالجنة، وهو أمين الأمة، بل جعل وحدة الصفِّ نصب عينيه، أولى النصر اهتمامه بغضِّ النظر عن موقعه من القيادة، ضاربًا مثلًا عظيمًا في إنكار الذات، والإيثار، وإعلاء المصلحة العامة على مصلحته الشخصية.

---

[1] - الخُلق.
[2] - البداية والنهاية، ابن كثير.
[3] - ذكر ابن إسحاق أنه من النَّفر الذين أسلموا بعد الثمانية الأوائل.

وحلـم الإمـام العـادل ولينـه لا يكـون فقـط مـع قادتـه ووزرائه، إنَّما مع شعبه ورعيته ومحكوميه، حتى وإن أساءوا، فهو يجعل نفسه منهم موضع الأب من أبنائه، يلين لهم ويتسامح معهم رغم قوته وضعفهم، وقدرته وعجزهم، «قَدِمَ عُيَيْنَةُ ابْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي، هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الأَمِيرِ، فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ، قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ الحُرُّ لِعُيَيْنَةَ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيْ يَا ابْنَ الخَطَّابِ، فَوَاللهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ[1] وَلاَ تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ[2] أَنْ يُوقِعَ بِهِ[3]، فَقَالَ لَهُ الحُرُّ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ

---

[1] ـ الكثير.
[2] ـ أراد.
[3] ـ يعاقبه.

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[1]، وَإِنَّ هَـذَا مِـنَ الجَـاهِلِينَ، وَاللهِ مَـا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلاَهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ».[2]

واحـدٌ مـن رعيتـه يُغلـظ لـه القـول، ويتهمـه بـالظلم، فيغضـب كأيَّـةِ نفـسٍ إنسـانية لا تحتمـل الإسـاءة ولا الإهانـة، لكنه لمَّا ذُكِّرَ بالله رجع، ولمَّا سمع القرآن خشع، فهدأ وحلم ولان وخضع.

فالإمـام العـادل لا يـدع الغضـب يتحكَّم في قراراتـه، ولا يـترك انفعالاتـه تحكـم علاقتـه بـالآخرين ،إنَّمـا يعمَـد دائمًـا إلى الحلـم واللـين، وثمَّـة فـارق بـين اللـين والضـعف، وبـين الحلـم والعجز، فلين الحـاكم لا يمنع من شـدته، وحلمه لا يكون إلا بقدرتـه، لكـن الإمـام العـادل الـواعي يضـع الحلـم موضـعه، والشدة موضعها، وهو يعي أن من تمام القدرة العفو، وأن من كمال القوة الحلم.

---

[1] - الأعراف 199.
[2] - صحيح البخاري.

رفض المتملقين

ولعلَّ من أهمِّ الصفات الواجب توافرها في الإمام العادل ألَّا يقبل المنافقين المتملقين، وألَّا يجعل أذنيه وعاءً لمدحهم الدائم وإطرائهم المستمر، والأولى به ألَّا يحيط نفسه بمثل هؤلاء، فهم مهلكوه لا محالة، فإن أراد النجاة فلْيُحِط نفسه بمن يعظه، ويبصِّره بأخطائه، ويهدي إليه عيوبه، «وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ رَحِمَ اللهُ مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوبِي[1]»، فالبطانة الصالحة تعين الحاكم العادل على الإصلاح، ولا تكتفي بالنفاق والتملُّق والمدح الزائف.

وعلى الإمام العادل أن يكون حريصًا كل الحرص تجاه الإعلام، فلا يسمح لهم بإطالة النَّفَس في مدحه، بمناسبةٍ وبغير مناسبة، ولا يعطي الفرصة للمنافقين ليبثُّوا سمومهم في آذان الناس، وفي أذنيه قبل كلَّ شيءٍ، «عَنْ عُمَرَ ابْنِ

[1] - سنن الدَّارميِّ.

الْخَطَّـابِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ قَـالَ: «إِنَّ أَخْـوَفَ مَـا أَخَـافُ عَلَـى أُمَّـتِي كُـلُّ مُنَـافِقٍ عَلِـيمِ اللِّسَـانِ»[1]، فهـؤلاء المنـافقون المتملِّقون هم أشدُّ خطرًا على الأمَّةِ من أعدائها، إذ يُبعدون الحاكم عن الجادَّة، ويصرفونه عن الحقِّ، ويدفعونه إلى الباطل، ويزيِّنون له أفعاله؛ لذا كان أوَّلُ ما يتعيَّنُ عليه أن يفعل هو أن يُخرس هؤلاء، ويقطع ألسنتهم، ويضرب بيدٍ من حديدٍ على يد كلِّ منافقٍ متملِّقٍ يزيِّن الباطل ويجمِّل العيوب.

[1] - رواه أحمد في مسنده، وصححه الألباني.

رسالة أخيرة

بعد تولِّي عمر بن عبد العزيز الخلافة، تقول زوجته فاطمة: «دخلت يومًا عليه وهو جالس في مصلاه، واضعًا خده على يده، ودموعه تسيل على خديه، فقلت: مالك؟ فقال: ويحك يا فاطمة، قد وُلِّيتُ من أمر هذه الأمة ما وُلِّيتُ، فتفكَّرتُ في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب والأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير، والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربي عز وجل سيسألني عنهم يوم القيامة، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ، فخشيت أن لا يثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي فبكيت»[1].

---

[1] ـ البداية والنهاية، ابن كثير.

أجر الإمام العادل

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ فِي خَلاَءٍ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسْجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَى نَفْسِهَا، قَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ»[1].

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَرُدُّ اللهُ دُعَاءَهَمْ: الذَّاكِرونَ اللهَ كَثِيرًا، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ، وَالْإِمَامُ المُقْسِطُ»[2].

* قَالَ الْحَارِثُ: حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَّامٍ، حدثنا هُشَيْمٌ، عَنْ زِيَادِ بْنِ مِخْرَاقٍ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ أَبِي

---

[1] - رواه البخاري.

[2] - رواه البيهقي في شعب الإيمان، وصححه الألباني.

هُرَيْـرَةَ رضي الله عنه، عَـنِ النَّـبِيِّ ﷺ قَـالَ: «لَعَـدْلُ الْعَامِـلِ فِي رَعِيَّتِـهِ يَوْمًـا وَاحِـدًا أَفْضَـلُ مِـنْ عِبَـادَةِ الْعَابِـدِ فِي أَهْلِـهِ مِائَـةَ عَـامٍ، أَوْ خَمْسِـينَ عَامًـا» الشَّـاكُّ هُشَـيْمٌ[1]؛ أي وقـع الشـكُّ في العـدد مائـة أو خمسين من الرواي هشيم.

* قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِـطِينَ عِنْـدَ اللهِ عَلَـى مَنَـابِرَ مِـنْ نُـورٍ عَـنْ يَمِـينِ الـرَّحْمَنِ عز وجل وَكِلْتَـا يَدَيْـهِ يَمِـينٌ، الَّـذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»[2].

[1] - أخرجه ابن حجر في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية.
[2] - رواه مسلم.

وزر الحاكم الجائر

* عَـنْ عَـوْفِ بْـنِ مَالِـكٍ ﷺ عَـنِ النَّـبِيِّ ﷺ قَـالَ: «إِنْ شِئْتُمْ أَنْبَأْتُكُمْ عَنِ الإِمَارَةِ وَمَا هِيَ؟ فَقُمْتُ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي ثَلاثَ مَرَّاتٍ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَوَّلُهَا مَلامَةٌ، وَثَانِيهَا نَدَامَةٌ، وَثَالِثُهَا عَذَابٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ مَنْ عَدَلَ»[1].

* عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولًا لَا يَفُكُّهُ إِلَّا الْعَدْلُ، أَوْ يُوبِقُهُ[2] الْجَوْرُ»[3].

* عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَيْلٌ لِلْأُمَرَاءِ، وَيْلٌ لِلْعُرَفَاءِ، وَيْلٌ لِلْأُمَنَاءِ، لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ ذَوَائِبَهُمْ[4] كَانَتْ مُعَلَّقَةً بِالثُّرَيَّا[5] يَتَذَبْذَبُونَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَكُونُوا عَمِلُوا عَلَى شَيْءٍ»[6].

---

[1] - رواه البزار والطبراني، وصححه الألباني.
[2] - يهلكه الظلم.
[3] - رواه أحمد، وصححه الألباني.
[4] - مفردها ذؤابة، وهو شعر مقدم الرأس.
[5] - مجموعة من النجوم على شكل ثور.
[6] - رواه أحمد وصححه الألباني.

* قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ آذَانَهُمْ: العَبْدُ الآبِقُ حَتَّى يَرْجِعَ، وَامْرَأَةٌ بَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَلَيْهَا سَاخِطٌ، وَإِمَامُ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ»[1].

* قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَنْ تَنَالَهُمَا شَفَاعَتِي: أَمِيرٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وَكُلُّ غَالٍ مَارِقٍ[2]»[3].

---

[1] - رواه الترمذي وحسّنه الألباني.

[2] - خارج من الدين بغلوه.

[3] - أخرجه السيوطي، وصححه الألباني.

خاتمة

عَـنْ عُمَـرَ بْـنِ الخَطَّـابِ، عَـنِ النَّبِيِّ ﷺ قَـالَ: «أَلَا أُخْـبِرُكُـمْ بِخِيَـارِ أُمَـرَائِكُمْ وَشِـرَارِهِمْ؟ خِيَـارُهُمُ الَّـذِينَ تُحِبُّـونَهُمْ وَيُحِبُّـونَكُمْ وَتَدْعُونَ لَهُمْ وَيَدْعُونَ لَكُمْ، وَشِرَارُ أُمَرَائِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»[1].

[1] - رواه الترمذي، وصححه الألباني.

فائدة

ثمة أحاديث وقصص مشهورة كثيرة كان يمكن الاعتماد عليها في موضوع الكتاب؛ لكن بعضها لم يصح وبعضها لم نقف له على أصل، لذلك فقد رأينا الإشارة إليها تعريفًا بها، وتحذيرًا منها، ونذكرها بالتوبيب الذي كان يمكن أن تُذكر فيه:

العدل:

* قصة شكوى رجلٍ عليَّ بن أبي طالب لعمر ابن الخطاب، وقضائه بينهما، وقوله لعلي: ساوِ خصمك يا أبا الحسن، وغضب علي من مناداته بكنيته، وعدم فعل الأمر نفسه مع خصمه.

*قصة سباق ابن عمرو بن العاص مع قبطي مصري، وسبق القبطي، وضرب ابن عمرو بن العاص له، وسفره إلى الخليفة عمر بن الخطاب وشكواه من عمرو وابنه، وقصاص عمر له من الاثنين، والقصة مشهورة بابن الأكرمين.

الشورى:

* مشورة الرسول ﷺ للخباب بن المنذر يوم بدر، وقوله: أهو منزلٌ أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخره، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

تقبُّل النقد والمحاسبة:

* قصة وقوف عمر بن الخطاب على المنبر وقوله: عليكم السمع والطاعة، ومقاطعة سلمان الفارسي له: لا سمع ولا طاعة، ومراجعته في توزيعه عطايا بيت المال.

* قصة تحديد عمر بن الخطاب المهور، وردِّ المرأة عليه، وقوله: كل الناس أفقه منك يا عمر، حتى ربات الحجال.

البساطة والتواضع:

* قصة مساعدة الرسول ﷺ لعجوزٍ تحمل الحطب، وهي لا تعرفه، ونصحها له ألَّا يتبع محمَّدًا، فلمَّا عرفته أسلمت.

* نوم عمر بن الخطاب تحت شجرة، وقول رسول كسرى له: حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر.

تفقُّد الرعية:

* قصة تعيين عمر بن الخطاب الشفاء بنت عبد الله على حسبة السوق.

حسن التصرُّف في الموارد:

* قصة زيادة المال في عهد عمر بن عبد العزيز، وقوله انثروا الغلال على رءوس الجبال؛ حتى لا يقال جاع طيرٌ في بلاد المسلمين، وصحَّت برواية أخرى، ذكرناها في موضعها.

النزاهة:

* قصة عمر بن عبد العزيز حين كان يشعل شمعة من بيت مال المسلمين، ثم يطفئها ويشعل شمعة من ماله الخاص حينما يأتيه من يحادثه في أموره الشخصية.

الزهد:

* قصة سؤال عمر بن الخطاب جيش المسلمين في الشام عن طعامهم وطعام قائدهم أبي عبيدة بن الجراح، وإجابتهم بأن طعامهم اللحم والمرق والثريد، وطعام أبي عبيدة كسرات من الخبز اليابس وقليل من اللبن، وقول عمر عنه: صدق من سمَّاك أمين هذه الأمة.

إحسان اختيار الولاة:

* حديث: «من استعمل رجلًا على عصابة وفي تلك العصابة من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله وخان جماعة المسلمين». ضعيف.

* حديث «من ولي من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحدًا محاباة فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا حتى يدخله جهنم». ضعيف جدًّا.

العزة مع المعتدين:

* قصة إجلاء يهود بني قينقاع، بعدما تعمَّد أحدهم كشف عورة امرأة مسلمة في السوق، فقالت: وامحمداه، فغضب لها رجلٌ مسلم فقتل اليهودي، فقام أهل اليهودي فقتلوا المسلم، فأجلى النبي ﷺ اليهود لذلك، بينما سبب الغزوة في الحقيقة هو كثرة المؤامرات والمشكلات التي أوقعها بنو قينقاع، وتشجيعهم للمشركين والمنافقين على المسلمين.

مراعاة حقوق الأعداء:

* قصة قوله ﷺ يوم فتح مكة: ماذا تظنون أني فاعلٌ بكم؟ اذهبوا فأنتم الطلقاء.

* قصة رفض عمر الصلاة في كنيسة القيامة يوم فتح بيت المقدس بعد دعوة البطريرك له؛ لئلَّا يأخذها المسلمون بعده.

اللينِّ والحلم:

* قصة غضب عبد الله بن الزبير من معاوية بن أبي سفيان بسبب دخول عبيد معاوية أرض عبد الله بن الزبير، وإغلاظ عبد الله لمعاوية في القول، وحلم معاوية وتنازله لعبد الله عن أرضه.

أجر الإمام العادل ووزر الحاكم الجائر:

* حديث: «أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة إمام عادل رفيق وشر عباد الله عند الله منزلة يوم القيامة إمام جائر خَرِق». ضعيف جدًّا.

* حديث: «من ولي شيئًا من أمتي فلم يعدل فيهم؛ فعليه بهلة الله. وبهلة الله: لعنة الله». منكر جدًّا.

* حديث: «.. وأما أول ثلاثة يدخلون النار: فأمير مُسَلَّط، وذو ثروة من مال لا يعطي حق ماله، وفقير فخور». ضعيف.

أهمُّ المصادر والمراجع

❖القرآن الكريم.

❖الجامع الكبير، السيوطي.

❖المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، ابن حجر.

❖المعجم الكبير، الطبراني.

❖الموطأ، الإمام مالك.

❖سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني.

❖سلسلة الأحاديث الضعيفة، الألباني.

❖سنن أبي داود.

❖سنن البيهقي الكبرى.

❖سنن الترمذي.

❖سنن الدَّارميِّ.

❖صحيح ابن حبَّان.

❖صحيح البخاري.

❖صحيح مسلم.

❖صحيح وضعيف الترغيب والترهيب.

❖مسند الإمام أحمد.

❖مسند البزَّار.

❖الأبرار، الزمخشري.
❖الأحكام السلطانية، الماوردي.
❖الأدب المفرد، البخاري.
❖الأموال، القاسم بن سلام.
❖البداية والنهاية، ابن كثير.
❖التبصرة، ابن الجوزي.
❖الحسبة في الإسلام، ابن تيمية.
❖الخراج، أبو يوسف.
❖الزهد، أبو داود.
❖السيرة النبوية، ابن هشام.
❖الطبقات الكبرى، ابن سعد.
❖العقد الفريد، ابن عبد ربه.
❖الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ابن الطقطقي.
❖الكامل، المبرد.
❖الكامل في التاريخ، ابن الأثير.
❖المغازي، الواقدي.

❖المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي.
❖النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي.
❖تاريخ الخلفاء، السيوطي.
❖تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، الدياربكري.
❖تاريخ الرسل والملوك، الطبري.
❖تاريخ دمشق، ابن عساكر.
❖تاريخ عمر بن الخطاب، ابن الجوزي.
❖تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المِزِّي.
❖حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الأصبهاني.
❖رسالة الحسبة، ابن الجوزي.
❖زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية.
❖سراج الملوك، الطرطوشي.
❖سيرة ابن إسحاق.
❖سيرة عمر بن عبد العزيز، عبد اللّٰه بن عبد الحكم المصري.
❖شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد الحنبلي.
❖شرح السنة، البغوي.
❖شرح نهج البلاغة، أبو الحديد.

❖شعب الإيمان، البيهقي.

❖صفوة الصفوة، ابن الجوزي.

❖عيون الأخبار، ابن قتيبة.

❖فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني.

❖فتوح البلدان، البلاذري.

❖فضائح الباطنية، أبو حامد الغزالي.

❖لقاء الباب المفتوح(لقاءات صوتية مفرَّغة)، ابن العثيمين.

❖ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، محمد بن عبد الله العوشن.

❖مفاتح الغيب، فخر الدين الرازي.

❖أخرى.

فهرس

تمت

«اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومَفزَع كل ملهوف، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنُّها من أذى الحر والقر. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغارًا، ويعلمهم كبارًا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهًا، ووضعته كرهًا، وربته طفلا، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويموِّن كبيرهم. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدَّد المال وشرَّد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله».

من وصية الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز
العقد الفريد